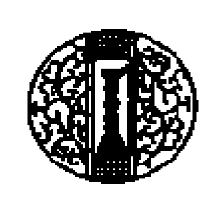
ثقافة الهند

Vol. XLIV Nos. 2-4 1993

المجلد ٤٤ العدد ٢ ـ ٤

١٩٩٣م



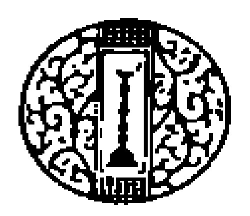
المجلس الهندى للعلاقات الثقافية

مجلة علمية، ثقافية، جامعة، فصلية

ثقافة الهند

المجلد ٤٤ العدد ٢ ـ ٤

١٩٩٣م



المجلس الهندى للعلاقات الثقافية

ازاد بوان . نيو دلهي

الهند

عزيزي القارئ:

مازلنا نبذل غاية ما في وسعنا لأن نوفر لكم مجلة **ثقافة الهند** بلا مقابل و لكن مما يؤسف له أن تكاليف الطباعة قد ازدادت ازديادا هائلا . فنجد أنفسنا مضطرين لأن نحدد مبلغا ضئيلا سعرا للاشتراك في المجلة . لكي يمكننا الاستمرار في تزويدكم بالأعداد المنتظمة لمجلة أدبية ذات المستوى العالي. و نرجو أنكم ستدركون هذا الوضع الجديد و تواصلون دعم المجلة

و سعر الاشتراك الذي يصبح نافذ المفعول بدءا من العدد الأول للعام المقبل ١٩٩١م كما يلي:

سعر النسخة	الاشتراك السنوي	اشتراك الثلاثة أعوام
٢٥ ـ روبية هندية	١٠٠ ـ روبية هندية	٢٥٠ ـ روبية هندية
١٠ ـ دولارات أمريكية	٤٠ ـ دولارا أمريكيا	١٠٠ ـ دولار أمريكي
٤ ـ جنيهات استرلينية	١٦ ـ جنيها استرلينيا	٤٠ ـ جنيها استرلينيا

كما نرجو ملاحظة الأمور التالية

١ ـ يجب دفع الاشتراك مقدما. و الأفضل أن يرسل بواسطة حوالة مصرفية أو حوالة بريدية باسم المجلس الهندي للعلاقات الثقافية ، دلهي الجديدة .

٢ ـ الاشتراك يشمل مصارف البريد ، أما مصاريف البريد المسجل فتكون على ذمة المشتري

٣ ـ باعة الكتب المقبقيون يستحقون خصم ٢٥٪ في المائة

٤ ـ المنظمات و المؤسسات و المكتبات العامة تستحق خصم ١٠٪ في المائة.

إن المجلس الهندي للعلاقات الثقافية منظمة حرة تحت وزارة الشئون الخارجية للحكومة الهندية. أنشئت عام ١٩٥٠م لإنشاء و تنمية العلاقات الثقافية و التفاهم المتبادل بين الهند و البلدان الاخرى . و كجزء من برنامج مطبوعاته الموجه لتحقيق هذا الحوار الثقافي بين الهند و البلدان الأخرى . ينشر. بين ما ينشر عدة مجلات ففي الانكليزية "Africa Quarterly" و "Indian Horizons" و في الفرنسية "Rencontre Avec I' Inde" و في الاسبانية "Papeles de la India" و في الهندية "Gagananchal" كلها تصدر أربع مرات في السنة

نشرها و طبعها السيد نيرانجن ديساني المدير العام المجلس الهندي للعلاقات الثقافية ، آزاد بوان، نيو دلهي ـ الهند . طبعت في مطبعة فاب انتربرائسيز جرين بارك نيو دلهي ـ ١١٠٠١٦

رئيس التحرير : البروفسور نثار أحمد الفاروقي

مجلـــة ثقافة الهند فصليـــة

المجلـــد ٤٤ العـــدد ٢ ـ ٤

١٩٩٣م

محتويات هذا العـــدد:

٥ ـ ٢٢ السيد طلحه الحسنى

فضيلة الشيخ أبوالحسن علي الندوى

٢٣ ـ ٤٩ نبذة من حياة الخواجه باقي بالله الدهلوى (٢)

فضيلة الشيخ نسيم أحمد الفريدى

٥٠ ـ ٦٠ مجهودات الشاه ولى الله الدهلوى

في التقريب بين المذاهب الاسلامية

البروفسور نثار أحمد الفاروقى

٦١ ـ ٧٠ الزخرفة و صناعة الأواني الخزفية
خلال العهدين القديم و الأوسط للهند

ضياء الدين الاصلاحي

٧١ ـ ٧٤ تيبو سلطـــان

د/ سيد داؤد أشرف

٧٥ ـ ٨٧ حركة السيد أحمد خان التعليمية (٢)

البروفسور أختر الواسع

٨٨ ـ ٩٢ قينة الشـــاه

امريتا بريتم

٩٣ ـ ٩٥ استعراض الكتب

د/ شميم الحسن امانة الله

٩٦ ـ ٩٧ بريـــــد القـــراء

السيّد طلحه الحسني

بقلم : فضيلة الشيخ أبي الحسن علي الندوي
مدير دار العلوم ندوة العلماء بلكناؤ

لما ظهر الجزء الثامن الأخير *لنزهة الخواطر* (١) في مايو سنة ١٩٧٠م . و قد تم نشره من دائرة المعارف حيدراباد، هنالك شعرت بل اكتشفت أن الشخصيات المرموقة و الرجال العباقرة للقرن الرابع عشر الهجري الذين يحتوي على تراجمهم هذا الجزء . و الذين يبلغ عددهم إلى (٦٣٥)، لم يبق منهم الآن حيا سوى مولانا السيد طلحه الحسني . و كان هذا الشعور و الاكتشاف مزيج من التلهف و الارتياح . غير أن التلهف أغلب إذ إنه لم يبق من هذه الشخصيات الفذة النبيلة من يشهد بعينه الصورة التي يحملها قلم مؤرخ بارع و مترجم قدير، و يتلقى الاعتراف و التقدير جهوده و مآثره العلمية و العملية الرائعة. و أما ما كان يغمرني شيء من الارتياح و السرور فذلك لأن شخصية لا تزال فينا موجودة ستقرأ ترجمتها في هذا الكتاب و هي متعرفة على معظم من يتضمن الكتاب تراجم حياتهم، و كان الشيخ الحسني قد درس حياة المعاصرين المعروفين بجدية و إمعان . فكان له فيهم رأي صريح سديد، و كانت له نظرة عميقة نافذة على النواحي الدقيقة للحياة الإنسانية و على تناقضات النبلاء و ذوي الفضل المدهشة الممتعة التي هي مقتضى الطبيعة البشرية و نتيجة الوقائع و الأحداث الخاصة . فكان اعتقادي أن أحدا في شبه القارة الهندية لن يتمتع و يستلذ بدراسة هذا الجزء استلذاذه . و لن يعلق عليه أحد تعليقا ناقدا و بصيرا مثله . و أنه سيستحيل لعالم آخر أن يطالع هذا الكتاب بمثل التذوق و الشغف الذين يطالع بهما شيخنا الحسني بناءاً على ما كان له من علاقة القرابة و الرفاقة و الحب و الاحترام مع المؤلف رحمه الله (٢).

فلمّا ظهر هذا الكتاب كان أكبر ودي و محاولتي أن يصل هذا الكتاب إليه بأسرع وقت ممكن . و كان قد طالع الأجزاء السبعة لهذا الكتاب مرارا و تكراراً . لكن الحياة الإنسانية ليس لها قرار و انطفاء سراجها لا يستغرق

وقتاً طويلاً. و كان قد تجاوز الآن الثمانين من عمره . فكان على عتبة الموت منذ مدة غير قصيرة. و كلما تسلمت رسالة من كراتشي بعد مدة خفت أن تحمل نبأ هذا الحادث المفجع الذي كان لابدّ من وقوعه يوماً ما ، هذا و كان من المحظور طبقاً للقانون الجديد لباكستان أن يصل من الهند إلى باكستان أي كتاب مهما كان علمياً و دينياً و نزيهاً. و يعلم الله كم من مؤلف خابت آمالهم و تحطمت أحلامهم في هذه الفترة القاسية . و كم شغوف بالعلم إرتحلوا من هـذه الدنيا الفانيـة و في قلوبهم شوق أي شوق و حنين أي حنين لمطالعة كتابات الأصدقاء و المؤلفين المفضلين و تاليفاتهم القيمة النافعة للغاية. كنت مضطرباً غاية الإضطراب . و أحاول بأقصى جهدي أن يصل هذا الكتاب الذي يحمل في طياتـه تراجم مئات من المشاهير و الفضلاء الذين أنجبتهم أرض باكستان . و بها لقوا آجالهم المحتومـة، أن يصل إلـى بعض علماء باكستانيين و أصدقاء يتطلعون إليه و يهتزون لـه. و لهم فيـه ماسيقتبسونـه لدراساتهم و تاليفاتهم . و كان في مقدمتهم السيد طلحه الحسني

و كان الدافـع إلـى كل ذلك يشوبـه شيء من العاطفيـة و العلاقـة الشخصيـة. فلم يكن الأمر علميا و هادفـا بحتـا . بل كان شخصيـاً و عائلياً كذلك. كمّا أنه كان يخالطه شيء من المصلحية و الرغبة الصبيانية. و الواقع أن لذائـذ الحياة تقتصر شيئا كثيراً على أمور ليست وليدة المنطق الخالص و الفلسفة الجافة . فكنت أضمر الرغبة في نفسي أن يدلي برأيه و يعرب عن انطباعاته و مشاعره بقراءة هذا الكتاب. و أن يشجع المؤلف و يثني عليه بما بذل من جهود متواصلة و مساعي مشكورة. و أن يذكرني و يتذكر زمنه القديم . إذ كان يقدم من لاهور في إجازات الصيف . و يقرأ المصنف عليه مواضع من كتابـه. كما كنت أضمر في نفسي الرغبـة لأعرف مدى نجاحي فيما قمت بترقيع الزيادات في هذا الكتاب و محاكاة اسلوبه . و لم يكن هناك من يذكر ذلك بغاية من الدقة و الثقة و الصراحة مثله . فإنه لم يكن في شبـه القارة الهندية إلاّ بضعة أشخاص يتمتعون بالذوق الأصيل في الترسل و الإنشاء العربي . و يتحلون بالنظرة الدقيقة على أساليب اللغة العربيـة مثله . و ذلك علاوة على أنه أستاذي و محترمي. فلا مجال له للمراعاة و التسامح في أمري. و تفوق جملتان لإعترافه و تقديره عشرات من التعليقات المبسوطة.

و سنحت لـي فرصـة سعيدة بفضل الله لايصال هذا الكتاب إليـه في نهاية يونيو . و طالع الكتاب ـ حسب مارجوت ـ في أقرب وقت رغم انحراف صحته . و أرسل إليّ إشعاراً مفصلاً لإستلام هذه الهدية المتواضعة. ممّا كان يمكن أن يعد أكبر تعليق موضوعي بصير على الكتاب . إن الذين يتمتعون بشيء من التجارب في مجال التصنيف و التاليف هم يعرفون أن مؤلفاً سلي تاليفه بدمائه ربّما لا يرتاح و لا يبتهج بعشرات من صفحات التقدير و الثناء و لا يعتبرها اعترافاً حقيقياً لجهوده المضنية مثلما يرتاح و يستبشر بجملتين

من خبير مطلع تنمان عن جوهر الكتاب و جهود المؤلف الأصيلة و مساعيه المتواصلة . كانت رسالته في الواقع من هذا الطراز الرفيع الممتاز . إضافة إلى ذلك كانت الرسالة تحمل الإعتراف بأن مكمل هذا الكتاب قدنجح إلى حد كبير في ترقيعه . و كان تشتمل على بعض تعديلات في عباراتي . تنم عن علو كعبه و براعته في الأدب و الإنشاء . و بالجملة فقد حقق الله أمنيتي العظيمة . و تم نشر الكتاب في حياته . و استطاع ملاحظته . و من حسن حظي أنه لاحظ ترجمته التي لا تشوبها شائبة من المبالغة و الاطراء. و لا يكدرها البخس و الاجحاف . و ذلك في زمن عاد فيه الإعتراف بالفضل و البراعة مجرد ثناء و تحسين . و أصبح معيار العظمة و العبقرية يدور حول الفخفخة و الظهور . و الانتماء إلى حزب أو طائفة خاصة . و تضخم التاليفات. و فساحة دائرة التلامذة و المحبين . إنه لم يذكر في رسالته شيئاً من هذه الميزات و الخصائص و لا كنت أرجوه منه. غير أن قلبي يتدفق بهجة و سروراً بانه طالع الكتاب . و إلاّ تاسفت على أنه لما تم نشر الكتاب لم يكن حيا. فلو كان حيا لارتاح بقراءة ترجمة فلان و فلان. و تمثلت في عينيه ذكرياتها . و لشجعني و اشاد بي بقراءة ترجمة الشيخ الفلاني.

و على كل فقد طوى ذلك الورق أيضاً لهذا المجلد . و انضمت من شخصياتها هذه الشخصية الأخيرة التي كانت حية بعد ما تم نشر الكتاب انضمت في اولائك النبغاء الذين ارتحلوا من هذه الدنيا . و لم يبق أحد من تلك القائمة الطويلة للنبغاء و العباقرة يمكن مقابلته أو الإستفادة من فضله و نبوغه . كان اليوم الأخير لسبتمبر سنة ١٩٧٠م إذ تسلمنا أولا من كراتشي رسالة للسيد حسين ابن أخيه . ثم تسلمنا الرسالة الأخرى لشقيقه الأصغر السيد أبي بكر. و عرفنا بهما أن الشيخ السيد طلحه الحسني انتقل إلى رحمة الله في ٢٢/ رجب سنة ١٣٩٠هـ (٢٥ سبتمبر سنة ١٩٧٠م) يوم الجمعة بالساعة العاشرة في إحدى مستشفيات كراتشي

و طبقا لما أفادت الرسائل تم دفنه في نفس يوم الجمعة في مقبرة مطمورة لمستعمرة مجاهد أباد بعيدة عن قلب البلد بأميال. و لعله لم يتم بها قبل ذلك دفن أحد من أسرته المعروفة. و قليل ممن دفنوا هذا الرجل العظيم عرفوا أنهم دفنوا أي شخصيته فذة جامعة لشتى الخصائص و المزايا. و دفنوا اى مجمع البحرين للعلوم الشرقية و الغربية العصرية و العقلية . و دفنوا تهانيا أي كنز للعلوم و المعارف بقي مغمورا مطمورا طوال عمره.

و هذا اليوم الذي مضى به خمسة عشر يوما على وفاته . و تخلصت من مشاكل فيضانات نهر سني و الأمطار الغزيرة لاتوابراديش الشرقية . و بذلك استطعت العودة إلى دائرة الشاه علم الله التي هي مسكن و مدفن آبائه . و التي قضى فيها آ. و ج و أسعد أيام حياته . في هذا اليوم تجددت الآلام القديمة و بدأت تتمثل في الذاكرة ذكريات الصحبة القديمة و المجالس الممتعة

و نكته و دراساته العلمية و تعليقاته و تقاريره النافعة ، و اليوم أنا جالس آخذا بالقلم لأسجل بعض انطباعاتي و أعرف من لا يعرف بأن أيّ سراج للعلم و الفضل قد انطفأ بغاية من السرعة و الخفاء في ٢٥/ سبتمبر، و أيّ آية باهرة قد اختفت للأبد من آيات العلماء السلف الذين كانت ثروتهم الجوهرية الأصيلة هي الموهبة العلمية القيمة و عمق النظر و بعد البصر و تنوع الميزات و الخصائص.

أعتقد أنه كان إماما من أئمة النحو و الصرف ، و عالماً و أديباً مترسلا و راوية كبيراً لخير ما نظمه الناظمون في العربية من شعراء العهدين الجاهلي و الإسلامي. كما كان يحفظ كثيرا من الأبيات المختارة الرائعة لأساتذة الفارسية و الأردية، و كان دقيق النظر واسع الإطلاع على علوم البلاغة و المعاني و البيان للغة العربية . و أعتقد أنه لم يكن في علماء شبه القارة الهندية من كانت دراسته لإعجاز القران واسعة و إطلاعه عليها مضبوطاً و دقيقاً مثل ما كان ذلك للسيد الحسني . و كانت له نظرة عبقرية رائدة للكتب القديمة لأصول الفقه و الكلام التي هي من أقلام أساتذة الفن و أئمته. و كان عالي الكعب راسخاً في المنطق و الفلسفة ، غزير المادة وافر العلم في التاريخ الإسلامي، و إذا كان أحد في شبه القارة الهندية اوسع منه علما و أدق منه معرفة فإنني لا أنكر ذلك إذ فوق كل ذي علم عليم ، غير أني أعتقد أنه لم يكن في العلماء المعاصرين من يستظهر الأحداث الهامة و السنين للتاريخ الإسلامي مثل ما كان يستظهرها السيد الحسني ، فكان كتاباً ناطقاً للتاريخ ، و كان في ذلك نصيب كبير لذاكرته القوية التي استطاع بها حفظ القرآن الكريم في أربعة أشهر بعد ما فرغ من الدراسة ، و كان حفظه للقرآن الكريم ـ على ما أعرف ـ ظل مصوناً مضبوطاً إلى النهاية . كما كان في ذلك فضل ملموس لما أكرمه الله به من الذوق التاريخي الفطري الذي نستطيع أن نعبر عنه بالحاسة التاريخية ، و هو فضل من الله يؤتيه من يشاء ، ما أكسبه موهبة يكفيه فيها ذوقه السليم و وعيه التاريخي البالغ لإستدراك زلة تاريخية ، مثل ما يقرض بعض الشعراء الفطريين و البارعين أشعاراً موزونةً مؤثرةً بدون استخدام قواعد العروض و القوافي ، و يدركون تنافر الشعر أو انحرافه من قواعد البحور و العروض

كان يتمتع نتيجة لذاكرته الموهوبة بطرق سهلة و ملح و طرائف عجيبة لتحفيظ الأحداث التاريخية الهامة و سنوات الوفاة للشخصيات التاريخية ، و كان بجانب ذلك بارعاً في علم الفرائض و متصفاً بذوق سليم لتدريب الطلاب على علم الفرائض ، و عارفاً للبروج و النجوم و أوقات طلوعها و غروبها، و ولوعاً بإشراك جلسائه و زملائه و تلامذته في هذا العلم و التذوق به بحيث يشكل ذلك في بعض الأحيان محنة كبيرة لمثلي القصير النظر و القليل الخبرة و المعرفة ، و ظل دائماً متذوقاً و شغوفاً بعلم الهيئة و الفلك

و الجغرافية . و إذا ماسنحت له فرصة للإستفادة من اخصائي بارع في الهيئة انتهزها و بادر في الإنقطاع للإرتواء من نميره الفياض معرضاً عن كل شغل . و كان نسيج وحده في الثقافة العامة و تزويد المجلس بملح و طرائف ممتعة . و كانت كتب السير و التراجم و طبقات الرجال موضوعه الخاص للدراسة و المطالعة . فكان مطلعا بالغ الاطلاع على مكانات طبقات الشخصيات القديمة، و كان مجالسه تزود الحاضرين حتماً بعظمة السلف الصالحين و معرفة طبقات المتقدمين و الحب لائمة أهل السنة و الجماعة و المحدثين . و من نعمه و مننه في ذلك عليَّ شخصيا أنه أثبت في قلبي عظمة للصحابة الكرام و السلف الصالحين و حباً و احتراما للائمة و المحدثين لم تكدره أي صحبة أو أي دراسة أو مطالعة في زمن من الأزمان

و كان إسم والده السيد محمد، يعرف في إمارة تونك بمعتمد الملك ظفر جنك . و يتولى منصب حاكم المديرية، و كان حفيداً حقيقياً للشيخ السيد محمد علي صاحب مخزن أحمدي ابن الأخت الكبير للشيخ السيد أحمد الشهيد، و كان عمه بخشي الملك محمد عثمان ايضا يتولى منصبا هاما في الشئون المالية . و كانت أسرته تتمتع بمكانة دينية و دنيوية مرموقة في الحكومة . و قد حصلت صيغة كبيرة من قبل الحكومة . فنشأ و ترعرع متقلباً في أعطاف النعيم، ولد سنة ١٣٠٨هـ (١٨٩٠م) في حارة قافلة (٣) بتونك، و بها حصل الدراسة البدائية . و كان ابن عشر سنين إذ قدم قريبه و شيخه مولانا حكيم سيد عبد الحي الامين العام المساعد لندوة العلماء إلى تونك سنة ١٣١٨هـ (١٩٠٠م) لمقابلة أعزائه و أقربائه . و لما أراد الإنصراف بعد ما قضى فيها بضعة أيّام أرفق الأولياء معه هذا الصبي السعيد لتحصيل التعليم الديني . فقدم إلى لكناو و إلتحق بدار العلوم ندوة العلماء . و بها درس عدة سنوات و كان مولانا السيد محمد علي المونغيري انذاك أمينا عاما لندوة العلماء، و العلامة شبلي النعماني مشرفا على الشئون التعليمية و أستاذه الجدير بالفخر و الإعتزاز مولانا محمد فاروق جرياكوتي عمدا و مولانا السيد سليمان الندوي طالبا من الطلاب . ثم أكمل دراسته متلمذاً على مولانا سيف الرحمن المهاجر إلى كابول و مولانا حيدر حسن خان شيخ الحديث في ندوة العلماء سابقا في المدرسة الناصرية بتونك التي كانت وطنه الثاني و مركزا علميا و دينياً كبيرا في وقتها، ثم اختار الطب كذريعة للمعاش طبقاً لعادة عامة المتخرجين من مدارس المقرر الدراسي النظامي . و غادر إلى دلهي حيث حصل الدراسة الطبية بإنتظام على يد حكيم غلام رضا خان أحد الأفراد المرموقين للأسرة الشريفية، و فعلا مارس العيادة في بومبئي لمدة قصيرة. (٤)

و كانت الإختبارات الشرقية لجامعة بنجاب لها في ذلك الحين صيت ذائع، و كانت الطلبة المتحمسون ذو المواهب و الكفاءات الطبية يغادرون من

أنحاء البلاد زرافات و وحدانا إلى لاهور للإشتراك في امتحانات فاضل و منشي فاضل" و لعل قليلاً منا يعرف أن كثيراً من نبغاء ذلك العصر المعروفين قد اجتازوا هذه المرحلة في شبابهم ، فالعلامة عبد العزيز الميمني المحقق المعروف للغة العربية من حاملي شهادة "فاضل و مولانا ثناء الله الامرتسري مناظر أهل السنة ظل يكتب دائماً "مولوي فاضل" مع إسمه في وجه صحيفته أهل حديث و قد اشترك السيد طلحه الحسني أيضاً في هذه الإمتحانات ، و كان - على ما أتذكر - هو الذي برز الأول في اختبار فاضل عبر الجامعة ، مما كان سبباً لأن يتولى منصب التدريس في اورينتال كوليج لاهور ، تولى منصب التدريس في الكلية سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٦م) ، و ظل يشغل هذا المنصب طيلة أربعين سنة بكاملها. و بذلك قضى أطول و أروع أيام حياته في لاهور التي كانت محطة لأهل الجودة و النبوغ من كل نوع و مركزاً لكل صنف من الأذواق و الحركات و المذاهب و النشاطات . و لم يكن السيد الحسني في كل مجلس و ناد علمي و طبقة و مجتمع للاهور و مألوفاً فحسب بل مكرما و مبجلاً كذلك ، إن ارتباطه بهذه الاوساط و الاتجاهات المختلفة و عدم انحيازه إلى حركة او جماعة أحدثا التعددية و التلونية في مواهبه و كفاءاته ، و أنشأ الجامعية و الشمول في عقليته و ثقافته ، و سلماه من الارتماء في احضان العصبية الطائفية و التحزب المذهبي الذي ينشأ عادة فيمن يقضون حياتهم بحولها في موسسة خاصة . لقد كان يجلس مثل العندليب الهائم على كل غصن من اغصان الازهار و يشدو عليه و يترنم، و يمص العصير مثل النحل من كل زهر و يحوله إلى عسل مصفى ، ينهل و يعل من كل مورد عذب، و يروى غلته من كل نمير صاف ، و لم تكن لديه أي أنفة من الإستفادة و التلمذة أمام أي بارع أو متخصص في فن ما ، و لا غرابة فقد كان هتافه في سوق العلم هل من مزيد و هل من جديد مهما أفادته علميا هذه العادة التي تحولت طبيعته الثانية فقد ألقت الستار دائما على فضله و نبوغه ، و أخفت مكانته العلمية من اصحاب الاسرار و البواطن العظام.

إن المجتمع الظاهري لم يعف قط عن الذين يتطلعون إلى أزهار و درر جديدة و يبدون فيها شوقهم و رغبتهم بدلا من إبراز نبوغهم و جوهرهم و بسط تفوقهم العلمي و امتيازهم الثقافي على الآخرين، و ربما عاقب المؤرخون و المترجمون فضلاً عن المواطنين الجهلاء البسطاء بعض النبغاء المرموقين عقاباً يكون عبرة للآخرين ، فقد شاهدت كثيراً من الناس ينجزون عملاً عظيماً بإستخدام خبرات بسيطة و تجارب قصيرة و دراسة محدودة ، و يثبتون ألمعيتهم و عبقريتهم أمام الناس ، كان السيد الحسني في الواقع من أولائك الذين يزعم عنهم الناس حتى العلماء و المثقفون منهم أنهم بسطاء قليلو المعرفة بالموضوع لشدة حرصهم على الإستفادة و الإقبال الشديد على

اقتناء الكثير من الخبرات و المعلومات، ممّا أدى إلى أنه بقي مغموراً مطموراً في الأوساط العلمية، و لم يحظ فيها بما كان يستحق به من السمعة و الإحترام و التقدير . بينما وصل الذين هم أقل منه خبرة و ثقافة إلى قمة السمعة و الظهور . و زد على ذلك بساطته و عدم التكلف و الاصطناع ، فلا مجال عنده للتصنع و التكلف في الملبس و المشرب و المجلس و التحدث . كان مطبوعاً على الحرية و الإستقلال و اللين و البساطة، يفضل راحته و استجمامه على النقد على الآخرين أو الإحترام لهم، و لا يبالي في ذلك بلومة اللائمين و أقاويل المتقولين.

كانت دائرة أصدقائه و زملائه في لاهور واسعة و متنوعة كذلك، فقد كانت تتضمن فيما تتضمن الشخصيات الدينية الكبرى و الأدباء و الشعراء ، و الفلاسفة و الرياضيين ، و المصوّرين و الفنانين على السواء ، حيث كانت علاقاته قوية و أواصره وثيقة بمفسّر القران الشيخ مولانا أحمد علي اللاهوري رئيس " حركة خدّام الدين " ، و مولانا عبد الواحد الغزنوي أمير جماعة أهل الحديث ، و من العلماء بمولانا داؤد الغزنوي و مولانا كريم بخش رئيس القسم العربي في الكلية الرسمية ، و مولانا أصغر علي روحي رئيس القسم العربي للكلية الإسلامية ، و كان هولاء الجميع يحبونه و يجلونه ، و يقدرونه و يحترمونه ، و كان في ذلك نصيب لكل من مكانته العلمية الفائقة و انتمائه إلى الشيخ السيد أحمد الشهيدرحمه اللّه ، و في جانب آخر كانت له علاقات بالأساتذة و الاخصائيين في اللغة الإنجليزية و الرياضية و الفلسفة و التاريخ ، فقد كان من أصدقائه و أحبائه خواجه سليم الذى كان بارعا في الفلسفة الجديدة ، و تولى فيما بعد منصب التدريس كأستاذ للغة الإنجليزية في الكلية الرسمية ، و البروفيسور محمود خان الشيراني المحقق المعروف للغة الأردية ، و العلامة تاجور النجيب آبادي ، و مير أولاد حسين شادان البلغرامي، و الأستاذ خواجه دل محمد الإخصائي المعروف في الرياضية، و عبد الرحمن جغتائي الرسّام المعروف و المرتّب لديوان " غالب" المصور ، و البروفيسور عبد الحميد الرياضي المعروف، و خواجه عبد الوحيد الكاتب الإسلامي ، و مولانا ظفر إقبال الأستاذ المحنك الخبير في السياسة التعليمية ، و مير سيد ممتاز علي منشي مطبع " دار الإشاعة بنجاب" و غيرهم.

و لم يكن آنذاك في لاهور أحد حلقته للمحبّين أوسع منها لمولانا أحمد علي، فقد كان الجوهر الأصيل لحياته و نشاطاته بعد نشر القرآن و إحياء السنة و الذود عنها هو الورع و التقى ، و كان غاية في صحة الإدراك و قوة الكشف و التورع من قبول دعوة عامة لناس و حضور المآدب عندهم . و قد كان يتصاعد هذا التورع و يتفاقم في شهر رمضان المبارك، و يبلغ القمة في العشرة الأخيرة ، و إن كان في هذا الكلي استثناء فهو للسيد الحسني ، فقد كان كثيراً ما يزور بيته في العشرة الأخيرة و يتناول عنده الطعام ،

و يقدمه ـ على العكس من عادته ـ للامامة و يأتم به ، و يخاطبه دائماً بألقاب التبجيل و الإحترام و كان السيد الحسني له علاقات ودّية ببعض أساتذة غير مسلمين لكلية " ديال سنغ" و يستفيد منهم في مواضيع خاصة، و كان صديقنا الفاضل الدكتور عبد الله جغتائي ـ الذي عين فيما بعد أستاذ الهندسة و البناء و الآثار القديمة في جامعة بنجاب ـ من أصدقائه الأحماء ، و لعله من تلاميذه كذلك و هو الذي أرفقني معه السيد الحسني لزيارة السري الدكتور محمد إقبال عند ما قدمت إلى لاهور لأول مرة سنة ١٩٢٩م . و قد كان الدكتور عبد الله جغتائي في بعض المناسبات من أمناء العلامة الدكتور إقبال الموثوقين بهم كذلك.

و في هذا السفر التاريخي التذكاري الذي يحتل نقطة التحول و منارة الطريق في حياتي هيأ السيد الحسني فرص الالتقاء بالبارعين و النبغاء من كل طبقة و قد بلغت آنذاك الخامسة عشرة من سني ، فحيث هو عرّفني بالعلامة إقبال و الشخصيات العلمية المرموقة للاهور فقد عرفني بغاما البطل المعروف و رستم زمانه ، و هنا تعارفت بالشاعر الكبير صاحب الملحمة الإسلامية الرائعة حفيظ جالندهري و حضرت لأول مرة معه المجلس و تناولت الطعام معه ، و قد أنشد بطلبي بعض أناشيده و قصائده . و كان في ذلك الوقت صيت ذائع كبير لـ "كل رعنا" تأليف والدي الجليل في تاريخ الشعر و الأدب الأردي بالأردية في الأوساط الأدبية بلاهور. و قد كان تم نشره قبل بضع سنوات ، فكان يتم تعريفي في كثير من الأماكن بأني نجل مؤلف "كل رعنا" و أحيانا كان تعريفي بأن هذا الناشئ يقدر على الكتابة و التحدث بالعربية بطلاوة و ارتجال ، و قدموني أمام العلامة إقبال قائلين إنه نجل مؤلف "كل رعنا" و إنه نقل بعض قصائدك إلى النثر العربي، (٥) كان السيد الحسني رحب الصدر و متحمسا جداً في السير بالأقرباء الحديثي القدوم لمقابلة الأعلام و الشخصيات المشهورة و مشاهدة الأماكن الأثرية المعروفة ، و يوفر لذلك الأوقات و الفرص بنفسه ، و يزيد هذه التنزهات و التفرجات لذة و بهاءً بخبراته الواسعة و معلوماته الزاخرة و إن ما استفدت و شاهدت في هذا السفر بفضله قد انتفعت به في طول حياتي و سيكون ذلك منه في جيدي لن أنساها أبداً ، فهو الذي بفضله تعارفت بالشيخ أحمد علي و توثقت علاقتي به و سعدت بألطافه و عناياته الضافية ، مما رسم على حياتي أثراً عميقاً و كبيراً و من هنا غادرت بصورة خاصة في العام المقبل إلى لاهور للإشتراك في درسه للقرآن و لم تزل هذه العلاقة تتوثق يوماً فيوماً.

و في ٢٣/ نوفمبر سنة ١٩٣٧م ذهبنا مع السيد الحسني نزور العلامة إقبال لآخر مرة ، و قد طال هذا الإجتماع إلى عدة ساعات و استفدت به كثيراً ، و قد ذكرت هذا اللقاء التاريخي بالتفصيل في مقال أردي ، تم نشره آنذاك في صحيفة غير معروفة لبنجاب بعنوان ساعة مع عارف هندي ثم

ظهر تقريره الملخص في مقدمة كتابي "روائع إقبال" و كان يرافقني في هذا اللقاء التاريخي السعيد إبن أخته الشقيق محمد إبراهيم الحسني، الذي إنتقل إلى رحمة الله بعد ذلك بسنوات ، و الآن كم أغتنم تلك الفرصة الذهبية إذ كان علي بخش خادم العلامة إقبال يوصيه مراراً و تكراراً بالإستراحة و الإستجمام و لكنّه يتغاضى عن ذلك و يستمر في حديثه.

و مع أنه قضى شطر حياته الذي هو زمن التأثر و التفاعل و القبول في مثل بلدة لاهور التي كانت مركزاً للفوضى الفكرية و الدينية حصلت له لقاءات متكررة مع المتنورين و المتجددين . لكنه لم ينحرف عن عقيدته و طوابعه و عمله قيد شعرة ، و ظل متمسكاً بعقائد أهل السنة و ثابتاً على مذهب أسرته. فكان مديم المواظبة على الصلاة بالجماعة ، و كان لا يكاد يتحمل رؤية شيئين أحدهما أن يصلي أحد بدون تعديل الأركان على حرف ، فكان ينتظره إلى أن يسلم ، فينصحه لا محالة مهما كان رجلاً عبقرياً و عظيماً ، و الثاني: إسدال الإزار ، و قد نبّه على ذلك بعض كبار العلماء و المشايخ ، و ربّما يختار للتنبيه و التحذير أساليب بديعة و طرقا مثيرة، مثلا إذا رأى رجلا ثريا أو رئيسا أو شابا أنيقا يسدل إزاره و يجرّه على الأرض قال له إزارك فائض ينجر على الأرض ، و فيه ما يكفي القلنسوة لمثلي الفقير ، و لا يحضر الحفل أو المأدبة التي تكون فيها المعازف و الموسيقي أو ينصرف عنها ، حكى لي ذات مرة : أنني حضرت وليمة أو مأدبة ابتدأ فيها الطرب و الموسيقي ، لما اعترضت على ذلك أوقف ، ثم ابتدأ مرة ثانية بأمر من شخص متنور و متذوق فلمّا اعترضت على ذلك مرةً ثانية نهض الأمر الذي كان مثقفاً بالثقافة العصرية الإنجليزية بنفسه إليّ ، و قال ما المانع الشرعي في ذلك ؟ زعمت أنه سيناقش معي و يقدم بعض دلائل علمية لقّنه الآخرون ، فافحاما له قلت إني أكره ذلك، يعني إن تودّون مشاركتي في هذا الحفل فعليكم أن توقفوا هذا الطرب و الموسيقي ، فبهت على ذلك ، كان السيد الحسني شديد التوحش و النفر من الاتجاهات العصرية الزائفة و المذاهب المنحرفة و لا سيّما من " قائلي القران و منكري الحديث و العقلانية و التاويل الزائغ المصطنع للنصوص القاطعة من القران و السنة كالذي سار عليه السيد أحمد خان منشي" جامعة عليجراه الاسلامية ، و كان منتهجا لمنهج السلف بشأن أسماء الله تعالى و صفاته ، و حافظا جدا للقران الكريم ، و صاحب ذوق رفيع لتلاوة القران الكريم ، و ظل يهتم بختم القران الكريم في التراويح مادام قوياً على ذلك، و إذا أسرع في القراءة متحمسا و مندفعا زادت القراءة لذةً و إثارةً و اهتز لها السامعون و ترنحت أعطافهم

و في سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م) أكرمه الله بحج البيت ، و كانت هذه السنة تذكارية من عدة وجوه، فقد انعقدت فيها حفلات المؤتمر الإسلامي على دعوة من الملك ابن سعود في موسم الحج في مكة المكرمة ـ زادها الله تشريفا و تكريما ـ

حضرها كبار العلماء و الزعماء و الأعلام المشاهير من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، و حضرها من الهند أيضاً السادة مولانا محمد علي ، مولانا شوكت علي ، مولانا ظفر علي ، العلامة سيلمان الندوي و مولانا كفاية الله المفتي و غيرهم كممثلين لجمعية الخلافة ، و جمعية العلماء ، و كان السيد طلحة الحسني قد رافقه في هذا السفر إلى مكة المكرمة عدة إخوته و أقربائه ، و رافقه أخوه الكبير السيد زبير من الهند، و غادر السيد عمر إلى مكة المكرمة من المانيا و حضر المؤتمر ، و غادر من الهند أيضاً الدكتور السيد عبد العلي ، و الشيخ خليل بن محمد اليماني و مولانا محمد السورتي و سعدوا بالحج و الزيارة في نفس السنة.

و لم يكن له خلاص من الإشتراك في الإمتحانات الإنجليزية لأجل جو لاهور و بسبب " اوريانتال كوليج (الكلية الشرقية) ، و قد سمحت الجامعة للراغبين في الإختبارات الشرقية بأن يشتركوا في اختبار الماجستر بمجرد الإشتراك في اختبارات الإنجليزية ، من هنا اجتاز السيد الحسني هذه المرحلة الخطيرة، و بذل في ذلك جهداً ضخماً و وقتاً طويلاً ، و كان بعد ذلك يتأسف على ذلك و يتألم ، و يهنئني رأفة و لطفا عليّ، و يغتبط بأني تمسكت باللغة العربية و العلوم الدينية و ثبتُ لهما و تجربت لهما ، فكان النجاح نصيبي و التوفيق ـ بإذن الله ـ حليفي ، و الواقع أن هذا التوفيق كان فيه حظه كذلك ، عندما قدمت لأول مرة إلى لاهور سنة ١٩٢٩م ذهب بي إلى العميد المساعد لكلية الفاضل المعروف و المحقق في العلوم الشرقية و الإسلامية الأستاذ محمد شفيع الذي تولى الإشراف على موسوعة الإسلام الأردية بعد ما تم الإنفصال ، و عرفني به ، و استشاره بتقديم بعض مقالاتي و بحوثي العربية حول مستقبلي و ما ينبغي أن يختار من الطريق، و كان كثير من الناس الذين يتأثرون بكفاءاتي و صلاحياتي تأثراً خاطئاً و معارضاً للواقع يشيرون عليّ بإختيار طريق الوظائف الحكومية ، أثاب الله الأستاذ محمد شفيع الجنة حيث إنه أشار عليّ بكل ثقة و اعتزاز بأن لا أحرز النبوغ و البراعة إلاّ في اللغة العربية و ملابساتها و أن أحصل شيئاً من البراعة و الإتقان في إحدى اللغات الأوربية ـ و المفضلة منها هي الفرنسية ـ للعمل في العلوم الإسلامية ، فلمّا لقيته بعد أعوام في مكتب موسوعة الإسلام ذكرت له رأيه السديد و مشورته الغالية ، و أعربت عن شكري له و تقديري البالغين.

و بالجملة فقد وجه السيد الحسني عنايته إلى اللغة الإنجليزية ، و بدأ الإشتراك في الإختبارات، و كان من عادته أن الموضوع الذي لفت إليه انتباهه استولى عليه ، و صار شغله الشاغل ، فكان يتجرد له كلياً و ينغمس فيه تماماً ، يطالعه دائماً ، و يدارسه و يذاكره كل حين ، و يستفيد من الأخصائيين و البارعين فيه و يستشيرهم ، فكان إذا سكن في لاهور أرى بحوثه و مقالاته الأساتذة الإنجليز للكلية الرسمية" و " كلية ايف، سي" ، و أذكر أن كانت

سنة ١٩٢٥م حيث حصل إجازة طويلة للإستعداد للبكالوريوس و أقام فى لكناؤ شهوراً ، و بدأ آنذاك يستصلح من الأستاذ " سدهانت" الذى كان أديباً مترسلاً فى الإنجليزية ، و رئيساً للقسم الإنجليزى فى جامعة لكناؤ ، و عيّن فيما بعد نائب رئيس لجامعة دلهى ، و لعله عرفه به الأستاذ خليل بن محمد اليمانى الذى كان استاذاً لى و صديقاً له و أستاذاً فى القسم العربى لجامعة لكناؤ.

أكرمه الله بذاكرة قوية للغاية ، و لم يكن يقتصر ذلك على لغة أو فن ، فكان نتيجة لذلك يحفظ مقتبسات كثيرة من مسرحيات الشاعر الكبير شكسبير و عبارات طويلة من كتابات غولد سمث و غيره ، و كان قد درس الكتاب "يوليس سيزور" فى الأدب الإنجليزى بغاية من الشغف و الإنهماك ، و الدقة و الإتقان ، و يسمعنا جملها المختارة بغاية من النشوة و الطرب ، و لكن الإنجليزية التى بذل فى تحصيل البراعة و الإتقان فيها قصارى جهده و التى لم تكن تمت بصلة ما بعمله و أشغاله لم تنفعه و لم تساعده شيئا فى حلّ القضية الإقتصادية و فى رفع مستواه فى الوظائف و المناصب ، فقد ظل معاشه مرتبطا بالعلوم العربية الدينية إلى آخر أيام حياته ، حتى استقال من الكلية الرسمية بطواعية نفسه سنة ١٣٦١هـ(١٩٤٢م) و انقطع الأمل نهائيا من الشهادات التى يرجى منها بعض الشئ.

و كان له ولع كبير و هيام شديد بالمطالعة و الدراسة، و كان غذاؤه الأصيل و ذوقه و هوايته (Hobby) مطالعة كتاب نافع جديد، فإذا توفر له كتاب قيم ذو معارف و معلومات تفانى فيه و انقطع عن الدنيا و ما فيها، طالعه و كذلك ذاكره مع جلسائه ، و إذا طالع أى كتاب - بشريطة أن يكون ذلك الكتاب له شخصياً - فلابد أن يكون معه مرسم أحمر ، يرسم به الأمكنة و الجمل التى يعجب بها ، حتى يصبح الكتاب أحيانا ألعوبة حمراء ، و كان السيد الحسنى قد مر عليه زمان استولى عليه كل مؤلف و كل كتاب .

و قد دعوت زمن إدارتى لصحيفة " الندوة الأردية الصادرة من ندوة العلماء فى مرحلتها الثالثة العلماء والكتّاب المشاهير" لتسجيل الكتب التى كان بها دورها فى تكوين ذوقهم ، و عقليتهم و أسلوب تفكيرهم و التعبير عن مشاعرهم و انطباعاتهم بالمؤلفين المثاليين و الكتب المفضلة ، فدبج عديد من كبار علماء الهند حول هذا الموضوع . و قد ساهم فى هذا البحث السيد الحسنى كذلك على أمر و إلحاح منى ، و إنّ بحثه قيم و مفيد و زاخر بالمعلومات و الخبرات و نافع جداً خاصة للطلبة و الأساتذة على السواء ، و قد جمع صديقى المحترم مولانا الحافظ محمد عمران خان الندوى هذه البحوث و المقالات فى كتاب بعنوان مشاهير أهل علم محسن كى كتابيں (الكتب المرشدة لكبار أهل العلم) و يمكن مراجعة آرائه الحقيقية و تجاربه لحياته العلمية و الثقافية فى هذا الكتاب.

و كان السيد الحسني له باع طويل و براعة تامة في تدريس قواعد الصرف و النحو، و كان ضغطه على التدريب العملي و تطبيق الأصول و المبادئ أكثر منه على المسائل و الجزئيات النظرية، و كان قد أعد مقررا موجزاً بسيطا للمسائل النحوية و الصرفية التي تمس إليها الحاجة في الحياة اليومية، و كان يدرس هذا المقرر الوجيز أولا ، و صلاحيتي المحددة للنحو و الصرف إنما هي رهن له على الأغلب . و إضافة إلى نفسي فقد استفاد منه في دراسة الصرف و النحو ابن أخته الشقيق أحمد الحسني الذي يجيد العربية و الإنجليزية على السواء ، و الذي ينطق اللغة العربية كأحد أبنائها الأقحاح . و استفاد منه كذلك في الصرف و النحو محمد ثاني الحسني رحمه الله .

كان قليل الصفح عن الخطأ ، يؤنب على ذلك و يبدي أسفه و استياءه أياما و أسابيع ، لأجل ذلك لا نكاد نجترئ على اقتراف الخطأ مرة أخرى و نكون دائماً على حيطة و حذر، و قد درست منه كتب الأدب و اللغة كذلك. لكن جل استفادتي منه حصل في الصرف و النحو، كان مولعا جدا بالكتاب لسيبويه ، كما كان معجبا با "المفصل" للزمخشري، و يعرف به الطلبة . و يكره " الكافية" لإبن الحاجب ، غير أنه كان يشيد بكتابه الشافية و ينوه أيضاً بشرحه " الرضي ، أما كتب العلامة السيوطي فكان المزهر منها كثيراً ماتحت دراسته ، و يحرض طلبة الأدب على دراسته.

أما الكتب الدينية فقد كان يحب و يحترم الجامع الصحيح للإمام البخاري منها بل كان ولوعاً به و هائما ، و كان ذلك - على حد قوله - ثمرة لتدريس مولانا سيف الرحمن الذي كان من الهائمين و العاشقين للبخاري. فكان السيد الحسني يقرأ حديثا للبخاري أ و قطعة لإسناده بغاية من النشوة و الطرب ، و لا يكاد يشبع من دراسته ، و كان كثير الإشادة بالهداية كذلك. و يعتقد أن هذا الكتاب له دور كبير في تكوين الذوق الحنفي في الفقه ، و كان كثير الإعجاب بالكشاف بما أكرمه الله به من الذوق الأدبي و البراعة في فن البلاغة ، و كان ولوعاً و هائما بشعر العجم في الشعر و الأدب للعلامة شبلي رائد النهضة العلمية الحديثة و أحد أساطين الأدب الأردي و من مؤسسي ندوة العلماء، كما كان كبير الإعتراف و التقدير لأسلوب كتابته و أدبه في التراجم و السير، و يقرأ " آب حيات في الشعر و الأدب لمؤلفه حسين أزاد بغاية من اللذة و السرور.

و استفدت من مجالسه العلمية أكثر ما استفدت من تعليمه الكتابي. و لا أبالغ إذا قلت إن له نصيبا كبيراً في تكوين ذوقي و عقليتي و أسلوب تفكيري و تربيتي و تثقيفي، مما يمكن أن يعبر عنه بكلمة واحدة هي "الثقافة" و مما استفدت منه أني تعودت على النظر إلى كتاباتي بنظرة الشك و النقد، و الإطمئنان من صحة استعمال الكلمات و مراجع الضمائر ، و مراجعة المعاجم مرات و كرات ، و من المشكلات التي يواجهها العلماء و الكتاب الهنود أن اللغة

الأردية مئات من كلماتها مأخوذة من اللغة العربية و لكن هذه الكلمات قد تغيرت كثيراً مفاهيمها و أمكنة استعمالها بعد ورودها إلى الهند ، و الهنود بناءا على كون تركيب هذه الكلمات من العربية يستعملونها بجراءة في كتاباتهم ، و لكن العرب الاقحاح و الادباء لا يفهمون منها قطعا ما يفهم الهنود ، فكان السيد الحسني يختار في ذلك غاية الدقة و الإحتياط ، حتى بلغت دقته مبلغ الوهم و الشك ، و لكني ككاتب بالعربية مخاطبوه العرب أصلاً ، انتفعت بتشككه و احتياطه و دقته كثيراً.

و كانت هوايته الثانية النوادي و المجالس العلمية و التاريخية و التنزيهية ، فكان يبحث في كل مكان و زمان عن أناس يجالسونه في أوقاتهم الفارغة و يشاركونه في الحديث ، و كان دائماً ينام متأخراً ، فكان مجلسه نشطاً في الليل متأخراً ، و لا يسمح لأحد بالإنصراف ، و قد كان ذلك يسبب المضايقة و الإزعاج لكثير من الأقرباء و التلامذة الذين لا يستلذون بمثل هذه المجالس أو يغلبهم النوم مبكراً ، و كثيراً ما يختفي منه أمثالي قليلو الهمة و ينصرفون من مجلسه متذرعين بعذرما ، و إذا ما طلع أثناء ذلك كوكب جديد أو كانت الليلة زاخرة بالنجوم و اتفق له الإتيان إلى الخارج فلابد أن يلح جلساءه بإنتهاز هذه الفرصة و الإنتفاع بها و الوقوف على هذه الكواكب ، و الذين كان يأنس بهم كثيراً من بين هذه المجالس يصرهم على مشاركته و مجالسته لوقت طويل ، و كان ممن تميزوا بهذه المزية هذا العاجز و مولانا محمد ثاني و السيد عقيل (الذي كان ابن عمته) و السيد عامر الحسني ، و كان كثير اللطف على محمد ثاني و متأثرا جداً بصلاحيته و سعادته ، فإستفاد محمد ثاني منه كثيراً في علم الفرائض و السنين التاريخية ، و حفظ منه في ذلك ملحا و طرائف لا تتوفر حتى في أمهات الكتب ، و كان السيد الحسني كثير الإستيناس في العلماء الاصدقاء بمولانا الشاه حليم عطا السلوني شيخ الحديث لدارالعلوم ندوة العلماء سابقاً و بمولانا حكيم حسن مثني الامروهي ، و أما في الأساتذة فقد كان اجتماعه كثيراً مع مولانا حيدر حسن خان و إذا ما زاره مرة في دار العلوم ندوة العلماء طال الحديث إلى نصف الليل ، و انفتح سجل الأحداث الماضية و التاريخ السابق ، و كان الحديث في هذا اللقاء يدور خاصة حول نفيه من "تونك" و شخصياتها الهامة و سلوكها و عاداتها . (٦) و قد سمعت مولانا حيدر حسن خان كثيراً ما يشكو في الصباح من أن السيد طلحه لم يسمح له بالنوم ، و لكن كان يحدث نفس ذلك في الليل القادمة ، و كان مولانا حيدر حسن خان يضحي بنومه لشدة علاقته معه و لأجل الموضع المفضل المشترك ، و لكنه بسبب قوته الروحية و هوايته العلمية لا يدع مجالا لتطرق أي خلل في مطالعته و درسه و تدريسه و بشاشة طبعه.

و كان معترفاً بسعة الدراسة و المعلومات و كثرة التجارب و الخبرات

لمولانا أنـور الشـاه الكشميري فـي العلماء المعاصرين و كانت لـه اجتماعات و لقاءات معـه في ديوبنـد و لاهور، و إذا ما مر الشاه الكشميري بمحطـة لاهور في طريقة إلـى كشمير ذهب يزوره بالمواظبـة ، ثم لا تسأل عن اللـذة التي تحصل في مجلسـه ، و ان الشاه الكشميري هـو أيضاً كثير الأنس بـه.
و كان السيد الحسني كثير الإشادة باستاذ مولانا سيف الرحمن في مجال الخلكة و الرجاحة و الواقعية و التجارب الواسعة للحياة ، و كثيرا ما يذكره.
و أما فـي مجال الـورع و التـقي و العـزوف عـن الشهوات فقـد كان معجبـاً بشيخين مـن أسرتـه مولانا السيد محمد عرفان التونكي و أخيـه الأصغر مولانا السيـد مصطفى التونكـي، و كان كلاهمـا حفيـداً حقيقيـاً للسيـد أحمد الشهيد رحمه الله و عاملا بالسنة ، و علاوة على هذين الشيخين فقد يذكر بحب و إحتـرام كبيرين شيـوخ الأسـرة الغزنـويـة و لا سيما مولانا السيد عبد الجبار الغزنوي و يحكي قصصهم المؤثرة المرققة.

و أما في أقربائه و شيوخ أسرتـه فـي طبقـة العلماء فقد كان متاثراً جداً بوالدي الجليل مولانا حكيم السيد عبد الحي بشخصيته و مواهبه العلمية و الثقافية و ذلك لأنه شاهد حياته في بيت واحد منذ سنـه العاشرة إلـى أن توفي مولانا السيد عبد الحي الحسني ، و كان ذكره كذلك الموضوع الخاص لمجلسه

و كان محافظاً على التقليد نظرياً و اعتقادياً، و لكن عاملا بالفقه الحنفي في جميع الشئون الدينية و المرافق العامة ، مع ذلك كان كبير الإعتراف بالإخلاص و الصلاح و التقي لشيوخ ديوبند الأكارم ، يذكر شيخ الهند مولانا محمود حسن بكلمة إطراء و تبجيل ، و يقابل مولانا السيد حسين أحمد المدني بحفاوة و إكرام ، الذي كان يقيم دائمـا عنـد الدكتـور السيد عبد العلي في لكناؤ، و بهذه المناسبة كانت له اجتماعات خاصـة مع السيد طلحـة الحسني ، و كان الشيخ المدني يمازحه كثيراً ، كما كان كبير الإعجاب بالحكمة الدينيـة و النصائـح الغاليـة و الخطب النافعـة و الكتب القيمـة لمولانا أشرف علي التهانوي ، و بالإخـلاص و الصلاح للداعيـة الكبير الشيـخ محمد إلياس الكاندهلوي منشئ جماعـة التبليغ و الدعوة ، و عندما قـدم إلـى مركز "نظام الدين" في دهلي في نوفمبر سنة ١٩٤٣م لدى وفاة العمة ، قابله الداعية الكبير بحفاوة و إكرام لعلاقته مع السيد أحمد الشهيد ما رايت مثله لاحد، كان زمن الشتاء ، و كانت المجمرة على بعد ، فلما بسطت المائدة كان الشيخ بنفسه يدفئ خبزاً خبزاً و يحضره للسيد الحسني و لم يسمح الشيـخ نجله مولانا محمد يوسف بالقيام بهذه الخدمـة ، و ذهب السيد الحسني فـي هذا السفر إلى ميوات كذلك ، و أقام عند مولانا عبد القادر لعدة أيام في راي بور أيضاً لقيه الشيخ بحفاوة و إكرام.

رزقه الله حظاً و افراً من البشر و الطلاقـة و الإشراقـة و خفة الروح ،

و كان قادراً على إضحاك الباكين و إيقاف الماشين بفضل ملحه و طرائفه ، كل كلامه له جانب جديد ، يسمي أسماء جديدة، و يحكي طرائف و ملحاً ممتعة شيقة . و قد نقص هذا البشر و الطلاقة لأول مرة عند ما توفي أخوه المحبب المفضل اللائق بالإعتزاز السيد محمد عمر المهندس الحسني في ولاية "جوناغره" سنة ١٣٦٠هـ (١٩٤١م) . كان السيد محمد عمر اية في مكارم الأخلاق و المحامد و الفضائل الإنسانية. كان السيد طلحة الحسني معجبا جدا بشخصيته و هائماً في حبّه، و كان يعتبره جوهرة و لؤلؤة لأسرته ، و لا غرابة فقد كان في الواقع كذلك، كان منارة له في هضم النفس و صلة الرحم و الجود و الإيثار و الاتزان و الإنسجام ، إن وفاته أحدثت في نفسه قلقاً و إضطراباً استحال معه أن يواصل وظيفته ، فاستقال بطواعية نفسه عن الوظيفة في " أورينتال كوليج" (الكلية الشرقية) سنة ١٣٦١هـ (١٩٤٢م).

و الحادث الثاني الذي أثر على حياته بل قصم ظهره و غير مجرى حياته هو وفاة عمتي المحترمة ، و إن كان قام بعد ذلك بزواجين و رزقه الله ولداً في النهاية ، لكنّه لم يتمتع بالبشر السابق و الطمانينة الماضية، و بدأ يقضي جل أوقاته في لكناؤ بعد الإستقالة من الوظيفة ، كان يانس كثيراً باخي الأكبر الدكتور السيد عبد العلي ، و لعل أطول إقامته في لكناؤ كانت سنة ٤٤ ـ ١٩٤٥م ، و كان يبذل بعض أوقاته في " إداره تعليمات إسلام" (مؤسسة التعاليم الإسلامية) التي انشئت لتعليم اللغة العربية السهلة و تعريف المثقفين باللغة الإنجليزية بالقرآن الكريم و التي كان يشرف عليها صديقي مولانا عبد السلام القدوائي ، و علاوة على ذلك فقد كان يقضي بقية أوقاته في الدراسة و المجالس التنزيهية الممتعة ، و إنتقل إلى باكستان سنة ١٩٤٨م ، و اتخذ الإقامة المستقلة في كراتشي، و لم يزر الهند إلاّ مرتين ، مرة في نهاية سنة ١٩٥٠م ، لكن كانت إقامتي أنذاك في مصر و الحجاز . فلا استطيع أن أكتب عن ذلك شيئاً و كانت زيارته للهند بالمرة الثانية في نهاية سنة ١٩٥٥م ، و لعله أقام هنا ستة أشهر ، قضى أثناء ذلك جل أوقاته في لكناؤ و بهوبال ، و أقام في دار العلوم ندوة العلماء لمدة حيث كان مشغولا في الدراسة و جمع المواد من مكتبة ندوة العلماء لكتابه (مدنية عهد الصحابة) الذي كان في دور التاليف بذلك الوقت . انتفع الأساتذة الشباب كثيراً بمجالسه و اجتماعاته العلمية زمن إقامته بدار العلوم ندوة العلماء . و كان له أصدقاء قدماء في بهوبال . لا سيما الصديق الفاضل المفتي رضوان الدين و تلميذه النجيب ملاحسن و الاخرون . و كان يختلف كثيراً إلى مجالس الشيخ الشاه محمد يعقوب مجددي زمن إقامته في بهوبال . و كان الشيخ هو كذلك يأنس به كثيراً و يعترف بسعة خبراته و معرفته بالتاريخ و الرجال . و قد ذكر لي مراراً قدومه الميمون و إفاداته العلمية.

بعد ما قضى مدة في كراتشي انضم في " دار التصنيف المحدودة" التي

تقـوم بنشاطاتها تحت إشراف مولانا طفيل الديوبندى ، كانت وظيفتـه فـى هذه المؤسسة أن يعيد النظر في الترجمة الإنجليزية للقرآن الكريم التى كانت تقوم بها تلك المؤسسة و أن يقدم آراءه تجاه هذه الترجمة في ضوء معرفته الدينية و اللغوية العميقة الواسعة. زوده مولانا طفيل أحمد بقدر كبير من العون و المساعـدة و المـؤازرة . لم تكن صحـة السيد الحسني الآن تسمحـه بمواصلة وظيفة أو شغل مستقل. لو كان الله أكرم أتقياء كراتشي و أثرياءها بالفقه و العقل و التوفيق لاغتنموا فرصة وجود مثل هذه الشخصية الفذة العبقرية ذات المواهب و الصلاحيات فيهم و لاتاحوا لها الفرصة أن تواصل خدمة الإفادة و الدراسة و تعيش عيشة هادئة مطمئنـة حرة . لكن مـع الأسف لم يتم ذلك . و قضى هذه المدة بقلق و اضطراب . و سيزعج و يقلق ذلك مدى الحياة جميع التلامذة و الأقرباء الذين استفادوا منه في لاهور مقيمين في منزله شهوراً و أعواما. و قد تطول قائمتهم. و لكنهم عجزوا عن تقديم خدماتهم له لأجل البعد المكاني أو الصعوبات القانونية الاخرى.

ثم حدثت بعد كل ذلك أحداث و وقائع زادت حياته وجعاً و مصيبة كان أكثر حبه بعد حبه لأخيه الأوسط السيد محمد عمر لاخته الوحيدة (والدة الاخ الكريم السيد أحمد الحسني) فاجأتها المنية سنة ١٩٦٨م . و بعد ذلك أو قبل ذلك بعدة أيام توفى أخوه الاكبر أبو حمزه السيد زبير الحسني. و بعد ذلك بمدة انتقل إلى رحمة الله فجاة أخوه الأصغر السيد محمد على الحسني الذى مكث في الهند حتى بعد الإنفصال و غادر إلى كراتشي سنة ١٩٦٨م . و لم تمض بها إلا تسعة أشهر حتى باغتته المنيـة . فلا غرابـة أن تقضى هـذه الأحـداث و الفجائع المتكررة على نضارة حياته و تكدر صفوها . و عند ما لقيته لآخر مرة على مطار كراتشي في ابريل سنة ١٩٦٩م ظلت تسيل دموعه مادام معى . و وقفت مشدوهاً حائراً على أن الشخص الذى كان مهيباً لحيماً ملء الإهاب كيف أصبح منهوكا نحيـلاً بجلـده و عارضـه تجاعيـد و فـى صوتـه ضعف و ارتعاش . و اعتبرت بأنـه هو نفس الشخص الذى كم كان يحمل فى طيـه من الروعة و البهاء و البشاشـة و النضـارة و الإنفتـاح و الإنبسـاط . و لكنـه أصبح اليوم موضع عبرة و مبعث حيرة و استعجاب.

إن كل ما وصفه السيد محمد حسين أزاد فى كتابه "آب حيات" حول مير السيد إنشاء ليصدق على السيد طلحه الحسني كذلك ، يقول:

"يعتقـد بعض فلاسفـة اليونان أن مـدة حياة الإنسان بـعدد أنفاسـه . و أعتقد أن كل شخص مثلما يولد و قد يحمل معه حظه من الرزق و الأنفاس كذلك يولد و كل شئ لـه مكتوب بما فيـه قـدر الفرح و السرور و الضحك . إن السيد الموصوف بذل قدره من الضحك و السرور الذى كان لطول العمر فـى وقت قصير . و بقيـة أوقات الحياة إما بقيت فارغـة أو أصبحت حظا للهموم و الغموم." (٧)

كان يؤكد لي مراراً و تكراراً و يطلب مني في كل رسالة له أن ألتقي به و أمكث معه ليالي ذوات العدد ، و لكن من يدري أن هذا اللقاء كان لقاءه الأخير.

كانت هوايته الأصيلة دراسة الكتب و تضخيم رصيده للمعلومات و الخبرات و لم يكن له شغف كبير بالتاليف و التصنيف ، لعل رصيده الزاخر بالمعلومات و ذوقه الرفيع للدراسة و المطالعة يحولان دون عرض معلومات و خبراته بصورة منتظمة منسجمة ، كما أنه لم يكن يتلاءم طبعه الحر مع القيود و الحدود . مما أدّى إلى أنه لم يعتن بالتاليف و التصنيف ، و إنما ألفَ *سيرة أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها* بايعاز من الأميرة سلطان جهان بيغم حاكمة الولاية زمن إقامته القصيرة في بهوبال في شبابه، و قد استلم على ذلك المكافأة، و لكن لم يتم طبعه، و فوضت الهيئة الإستشارية البنجابية للكتب إليه عملية نقل معجم "وليمز تنسي ورتي بات" إلى الأردية ، لكنه أشرك في هذه العملية لضخامتها و سعتها كثيراً من تلامذته و أصدقائه . تم طبعه سنة ١٩٣٨م ، لكن لم يرد إسمه في أي موضع من الكتاب، و في بداية الكتاب مقدمة علمية قيّمة لإثنتين و ثلاثين صفحة تحتوى على فوائد لغوية و نحوية هامة.

غير أن تذكاره العلمي الأصيل هو المسوّدة الناقصة لتاليفه العربي القيم الذى بدأ تاليفه منذ أعوام و سنوات حول الحياة الثقافية و المدنية للصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، و قد كان قام لذلك بجولة إلى الحجاز و مصر و سوريا و تركيا سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) بمساعدة صديقه الحميم الدكتور عبد الوهاب عزّام السفير السابق لمصر في باكستان ، يستفيد من مكتباتها الفريدة، و يقتني مواد حديثة للكتاب ، لكنه لم يوفق لإنجاز هذه العملية الخطيرة لعدم توفر الأسباب اللازمة ، و بناء على علاقته و عنايته الخاصة بي قد أرسل جميع البياضات و المسوّدات و الملاحظات لهذا الكتاب إليّ في مكة المكرمة عن طريق مولانا ظفر أحمد الأنصارى عضو رابطة العالم الإسلامي ، فلو اكتمل هذا الكتاب و تم طبعه لكان نظير وحده و موسوعة هامة على الموضوع ، هيأ الله الأسباب اللازمة لطبع هذا الكتاب لتخلد ذكراه العلمية، و لتشتمل مزايا الصحابة الكرام و مآثرهم بناحية جديدة. و ليتعرف من لم يعرفه على المكانة العلمية و الثقافية لباحث محقق عاش مغموراً منطوياً على نفسه.

يا زوج عمي ! و معذرة إلى القراء ، فقد خاطبته دائما بهذه الكلمات منذ نعومة أظفاري. لقد فارقتنا و أنت عشت مغموراً مطموراً منطوياً على نفسك، لم يعرفك الناس ، و لم يقدروك حق قدرك ، و لكننا لا نزال عامرين قلوبنا بذكرياتك العطرة و عاضين بالنواجذ على المعارف و المعلومات التى اقتنيناها منك و على البصائر و التجارب التى اكتسبناها منك ، إنما فارقت هذه الدنيا الفانية ، و لم تفارق دنيا قلوبنا العامرة بذكرياتك العطرة.

تعريب : أفتاب عالم الندوى

الهوامش :

(١) - يحتوي الكتاب (نزهة الخواطر لمؤلفه العلامة السيد عبد الحي الحسني) على تراجم الذين نبغوا في الهند من القرن الإسلامي الأول إلى سنة وفاة المؤلف ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) يغطي المساحة الزمنية من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري . و المساحة المكانية من ممر خيبر في الشمال الغربي من الهند إلى خليج بنغال في الشرق . و من قلل كشمير إلى مالابار و "كالي كوت" في الجنوب. و الأعيان من كل طبقة على اختلاف مذاهبهم الفقهية و اتجاهاتهم العلمية . و اختصاصاتهم الفنية . فجاء في ثمانية مجلدات كبار . يحتوي على أكثر من أربعة آلاف و خمس مائة (٤٥٠٠) من التراجم.
و قد صدرت الطبعة الجديدة لكتاب باسم " الإعلام بما في الهند من الأعلام " و هو إسم أدل على الموضوع من السابق.

(٢) - كان ختن مؤلف "نزهة الخواطر" و كانت عمتي متزوجة معه . و بهذه العلاقة و القرابة أصبح بينه بيننا و بالعكس

(٣) - حارة "القافلة" من الحارات المشهورة لولاية "تونك" أقامها الأمير وزير الدولة حاكم ولاية "تونك" بعد شهادة السيد أحمد الشهيد لركبه و أسرته

(٤) - قبل توافقه مع الطب إلى النهاية فقد أذكر جيداً أن والدي رحمه الله عند ما كان يغادر لكبار لأيام فإنه يجلس على مكانه في العيادة . كما أنه اشتغل بالعيادة بصورة مستقلة لمدة قصيرة

(٥) - كنت نقلت أنذاك قصيدة " الهلال" للعلامة اقبال إلى العربيـــة . و قد لاحظها العلامة بنفسه.

(٦) - في سنة ١٩٢١م عند ما كانت حركة الخلافة منتعشة قام بعض الناس مؤامرات خطيرة ضد سادات " القافلة" الذين هم أخلاف و أقرباء السيد أحمد الشهيد. و لأجل هذه المؤامرات خاف الأمير إبراهيم علي خان حاكم ولاية تونك من أن السادات سيحرمونه من الولاية و يسيطرون بأنفسهم عليها . فأمر بالمقاطعة الفوريـــة لاقطاعاتهـــم و عقاراتهـــم و مغادرة الولاية في بضع ساعات تعرضت أسرة السيد ضمنه بكاملها لهذه الفاجعة . فعادت إلى وطنها القديم " دائرة الشاه علم الله" براي بريلي . و أقامت بها. و قد سمح لهم الرجوع إلى الولاية بعد وفاة الأمير لكن لم تحصل تلك الطمانينة الضائعة.

(٧) - ص ٢٩٣.

الحلقة الثالثة:

نبذة من حياة
الخواجه باقى بالله الدهلوى
(أضواء على مجلس خواجه خرد)
نسخة نادرة لأقواله

بقلم : فضيلة الشيخ نسيم احمد الفريدى

أحوال خواجه خرد :

كان إسمه خواجه عبيد الله و لقبه خواجه خرد إبن خواجه باقي بالله الأصغر.

و كان خواجه خرد من أكبر زهّاد عصره و عالماً كبيراً فريد عصره يجمع بين العلوم العقلية و النقلية و كان السيد كمال سنبهلى مريداً خاصاً له و إنه ذكر أحواله و أقواله مفصلة فى كتابه *"اسرارية"* و قد كتبت رسالة مستقلة مفصلة فى تذكرة خواجه خرد و أخيه الأكبر خواجه عبد الله المعروف بخواجه كلاں و تشملها هذه المجموعة.

و كنت ذهبت إلى حيدراباد (الهند) فى شهر ديسمبر سنة ١٩٦٩م و صادفنى أن زرت المكتبة الآصفية و وقع نظرى على نسخة نادرة خطية بإسم *"ملفوظات خواجه خرد"* رتبها سلام الله الدهلوى و عرفت من *أسرارية* أن الخواجه سلام الله كان من أبناء خواجه خرد و كتبت معظم أقواله و أذكر هنا ترجمتها.

قال إن من أكبر الذنوب عندى طلب الدنيا و افضل الأعمال تركها فقد قال عليه الصلوٰة و التسليم *"حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة"*.

و قال: كل من يطلب الدنياليس له أى كرامة فى الدين و الدنيا ثم التفت إلى الزاهد سلام الله الدهلوى وتلا هذه الآية *"و ما مِنْ دابة فى الأرض إلاّ على الله رزقها"*

و قال : قال زاهد إذا ذكر لك أحد أن من يجتهد في هذه الدنيا يعيش في رغد من العيش و من لا يحاول يعيش في ضنك و فقر و جوابه قد ثبت من المشاهدة أن هناك كثيراً من الناس من يطلب الدنيا و يسعى لها ليل نهار و لكن لا تجدى مساعيهم شيئاً و هناك كثير من الناس من يعتزل عن الدنيا و لكنهم يتمتعون بكل نعمة من نعم الدنيا.

ثم قال: لو قال أحد إن طلب الدينا و السعى لحصولها مراد الله عزو جل فإنه من وساوس الشيطـان و ينبغـى أن يزال ذلك بالإستغفار و التعوذ و يقول خواجه سلام الله الدهلوى جاء رجل ذات يوم إلى والدى فذكر كثرة عياله و ضنك معيشته فقال عند ذلك :

لابد أن يستيقن أعزائى أن الله حيّ قيّوم رزّاق لسائر الناس فلا تنفع المساعى غير الضرورية ثم تلا هـذه الاية " *إنما اموالكم و أولادكم عدولكم* " (١).

و قال: كان مجذوب من المجاذيب يبدو كأنـه نائم لايلتفت إلى أحد و كان دائما مستلقياً على الأرض و أراد شاه شجـاع الكرمانـى زيارتـه و لما وصل إليه قال له رافعاً رأسه نم لأنام أيضاً و حكى والدى هذه القصة يوماً كان يريد أن ينام فيه ثم توجه إليّ قائلاً نم لأنام أنا أيضاً و أضاف قائلاً أقصد بتلك أن تلتفت إلى الله عز و جل و أتوجه أيضا إليه.

و قال : إختلف النحويون في إعمال الفعلين مثلاً ضربنى و أكرمنى زيد بسبب تنازع الفعلين فذهب الكوفيون إلى إعمال الفعل الاول و البصريون إلى إعمال الفعل الثانى و الأرجح ما قاله الكوفيون ثم قال إنما كانت الأرواح فى عالم الأرواح فى تصرف الله سبحانه و تعالى و لما إرتبطت بالأجسام قيضتها متصرفة فيها و هكذا أصبح الله سبحانه عاملاً أولاً و عالم الكون بمنزلة العامل الثانى و الأحسن أن يبقى عمل العامل الأول أعنى يكون الله سبحانه متصرفاً كاملاً.

و قال : إن كل عبـادة يؤديها أحد سمعـــة لا يثاب عليها و إن أدى بها فريضته و كل معصية تبعث على الندامة تكون نتيجتـه أحسن و يقول إبن خواجه خرد خواجه سلام الله الدهلوى دخلت عليه يوماً و كان هو فى فرح و إنبساط عجيب و كان المجلس كله مملوءاً بالفرح و السرور و كان كل منا يشعر بذلك ثم دعانى إليه و ألقى عليه نظرة خاصة لا أكاد أبين تاثيرها و قال كل ما فى الشريعة حق و كل ما قاله المتصوفون هو أيضاً حق و قال لم يوجد حتى الآن مثل خواجة باقى بالله الدهلوى بعد خواجه بهاءالدين النقشبندى فى هذا الصدد و قال : إن التوصل إلى العلم بواسطة الوهم صعب و أصعب من ذلك التوصل إلى الوحدة بواسطة العلم و عند ما بلغت الثانية أو الثالثة عشر سنة من عمرى لقننى الشيخ الهداد بدون طلب و كان من خلفاء والدى فظهرت فيّ آثار الجمعية ببركة التفاته فى ذلك العهد و لما رأيت رسائل مجدد الألف الثانى تقت إلى زيارته و لما قصدت نحوه كنت

أراه في المنام بعد كل منزل و كان يوليني عطفاً كثيراً و لما دخلت في سرهند غلبت على كيفية قلبي و لما زرته شعرت بفرح و إنبساط غريب.

و قال إن أول شيء ظهر لي عند ما حضرت في خدمة الشيخ مجدد الألف الثاني كان التوحيد بعد الكشوف الصوري و هناك مراتب و درجات كثيرة في التوحيد و تجلت لي معظمها في صحبته.

و قال إن أول شيء لهذه الطريقة التوبة و آخره تجلي سبحانه و تعالى.

و قال يجب الشكر على كل نعمة من نعم الله تعالى و لكن لا ينبغي أن يميل إلى الدنيا.

و دخل عليه زاهد و قال إن فلاناً من الأغنياء نال من شأن أصحاب النقشبندية فقال هذه علامة إنحطاطه.

و قال رأيت ذات ليلة في المنام إني جالس أمام خواجه باقي بالله و هو ملتفت نحوي و يقول لي قل : "الله الله" و أنا أقول معه : "الله الله" و تصرف خواجه في داخلي فنشأت في كيفية عظيمة و حالة قوية و لما إستيقظت وجدت تلك الكيفية نفسها و قال: ألقى والدي عليّ نظرة خاصة ولم أبلغ الثانية من عمري و قال لقد تقبل الله هذا الصبي في طفولته ثم أضاف قائلاً: قال لي ذلك شيخ المشائخ أستاذ الأساتذة الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي.

و قال إنما الشجاع من لا يحزن أحداً يجدر به و إنما الحر من لا يحزن رجلاً يوذيه ثم قال لا بد للطالب أن يتحلى بهذين الوصفين.

و قال إنما الزاهد من يصاحب عدوه أيضاً و يكرم كل أحد و إذا سبه أحد فهو يدعو له أو يهدي إليه هدية ليفرح و قال كان مير السيد أحمد مكي الذي كان من المخلصين لوالدي يقول وعدني خواجه باقي بالله عند ما أدخل الجنة اصطحبك بإذن الله تعالى.

و قال كنت يوماً في مجلس مجدد الألف الثاني و هو يقول إن الدخول في الجنة صعب جدا ثم روى حديثا مافحواه يدخل الجنة من يكون نقياً من الذنوب مثل ماء المطر و كان المجدد يقول ذلك و يبكي.

و قال: كتب تاج العارفين الشيخ تاج الدين سنبهلي في بعض رسائله إن من يواظب على الدعاء السيفي لوجه الله يفوز في أهدافه الدنيوية و لكنه إذا فعل ذلك لأغراض دنيوية فقط فإنه يكون كمن خسر الدنيا و الآخرة.

و قال : كان مجدد الألف الثاني يقول: إن مرشده خواجه باقي بالله كان يقول لم أر في الهند زاهداً مثل شاه الله بخش كرمكتيشري (٢) و كان يثني على حال جذبه و قال المجدد أثناء حديثه إن خواجه قال لبعض الزهاد إني أردت أن أبايع على يد خواجه الله بخش كرمكتيشري و كان يثني حتى أكون ، بداً له و لكن لم أبايعه لسبب (قد ورد ذكر ذلك السبب

فــي أقــواله و لكن لا أذكره نظراً إلى الإيجاز)

قال: كنت جالساً يوماً في خدمة المجدد فإنه ذكر أثناء بعض أحاديثه أن خواجه باقي بالله كان يفرق بين خواجه حسام الدين و الشيخ تاج الدين السنبلي حيث أن الأول كان أكثر علماً و معرفة و الثاني كان يفو ق في الحال و النشوة الروحية.

و قال : دعاني شيخ الهداد في أيام حياته الأخيرة ثم قال لقد أعطيتك كل ما وصل إليّ من خواجه باقي بالله و المشائخ الجشتية الاخرين.

فشعرت توًا كيفيــة غريبــة و فزت بهذه الإجازة بعد ما أجازلــي مجدد الألف الثاني رحمه الله و قبل ذلك أجاز لي مجدد الألف الثاني بتعليم الطريقة النقشبندية و حصلت على الإجازة في السلسلــة القادريــة علــى يد الشيخ محمد سعيد إبن المجدد بعد مدةٍ طويلةٍ لإجازة شيــخ الهـداد. يقول خواجه سلام الله دهلوي ذهبت مرة إلى خواجــه خرد و قد تغلبت عليــه الكيفية الروحية و لقد رأيت منه ذلك اليوم ما لارأيته قط قبل ذلك كان يبكي و يقول "إن ربّي ساخط عليّ" و الدموع تنهر من عينيه ثم قال ذكر لي زاهد إن الزهد ليس عبارة عن أداء الصلوات و الصوم و إحياء الليلــة و قلــة تناول الطعام بل الزهد أن لايؤذى و يحزن أحداً.

و قال : لقد شرح لي الله عز و جل هذه الآية الكريمة. "*جاءَ الحقُّ و زهقَ الباطلُ إنّ الباطلَ كانَ زَهُوقاً*" ثم قال: ينبغي للطالب أن يتلو هذه الآية سواء من قلبه أو من لسانه و يوقع ضربة على قلبه عند ما يقول " جاء الحقّ" و يدفــع "الباطلَ" إلى جانب ظهره عند قولــه "زهـق الباطل" و أضاف قائلاً : من المرجو أن ينشرح بذلك قلب الطالب.

و قال أيضاً : إن فحوى لا إله إلاّ الله و فحوى هذه الآية واحد و إنما الفرق إن النفي مقدم على الإيجاب في الأول و على العكس في الثاني.

قــال : كان يسكن فــي طريـق نداف و الناس يحسنــون الظن عنــــه و يعتبرونه على مرتبة الغوث كلما كمن أمّر بزقّته كان يدعو لي.

قال: إن الناس يكونون في إضطراب و قلق عند المرض و ذلك لعدم الرغبة في الآخرة و عدم إنقطاعهم إنقطاعاً كلياً عن الدنيا و لكن إذا حصل لهم ذلك فإنهم دائماً يكونون في راحةٍ و طمانينةٍ عند المرضِ و الموت.

يقول خواجه سلام الله الدهلوي سأل زاهد مرة من والدي هَل هناك أي نص على حدوث العالم فأجاب إن في هذا الحديث إشارة إليــه و هو "*كان الله و لم يكن معه* شيء" ثم ذكر رواية عن أبي ذرالغفاري رضي الله عنه تدل على ذلك دلالة واضحة.

قال : كان هناك ثلاثة أشخاص يعرفون بإسم ضياء الدين في زمن الشيخ نظام الدين أولياء قدّس الله روحــه كان أحدهم الشيخ ضياء الدين برني و هو مؤرخ شهير فــي الهند و كان من أصحاب الشيخ نظام الدين المخصوصين

و أتباعه و ثانيهم كان من مخالفيه و هو القاضي ضياء الدين سُنَامي و ثالثهم لم يكن من الموافقين و لا من المخالفين و هوالشيخ ضياء الدين نخشبي بدايوني صاحب كتاب "*سلك السلوك*".

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

"*يشب إبن آدم و يشيب فيه الخصلتان الحرص و طول الأمل*

او كما قال صلى الله عليه وسلم".

فيستلزم من هذا الحديث أنه تشب هاتان الخصلتان في أولياء الله أيضاً عند شيخوختهم و هذه مشكلة خطيرة و حلها فيما أرى أن شباب هاتين الخصلتين يقتضي أن تكونا في عهد شباب الإنسان و لكن إذا دفعهما إنسان في شبابه فإنه يتنزه عن شبابهما في مابعد و لو قال عليه الصلوة و السلام.

" يشيب *إبن آدم و يتولد أو يحدث فيه الخصلتان*" *لكانت المشكلة*.

و قال : تقتضي الهمة العالية أن ينقطع الإنسان كلياً عن جميع مراتب الدنيا و يعتبر الأشياء الفاخرة تافهة و يلتفت إلى الله سبحانه و تعالى دائماً.

و قال : يروى ذات يوم كان المسيح عليه السلام خارجاً إلى الصحراء فسأله رجل أين تقصد يا روح الله؟

فأجابه قائلاً ضقت من هؤلاء السفهاء لا أعرف كيف أداويهم ؟ رغم أني أبرئ الأكمه و الأبرص و أحيي الموتي بإذن الله و لكني أعجز عن مداواتهم و هذا الذي دعاني إلى الخروج إلى الصحراء.

قال: قال خواجه بهاء الدين نقشبندي كل ما يشا هد و يفهم هو غير الله و لابد أن ينكر بكلمة "لا" و لا يلتفت، إليه يقول خواجه سلام الله الدهلوي مرة كنت جالساً عند والدي و كان يعاني من مرض البطن في تلك الأيام فجاءه رجل و وصف له دواءً و قال إنه نافع جداً في مثل هذا المرض فالتفت إليّ قائلاً: كل ما أراد الله كائن لا محالة و كل ما كتب في القدر يحدث البتة. و أي يوم يكون أحسن من ذلك اليوم الذي يتلاقى فيه الصديقان و يتقاربان و قال رجل لخواجه خرد إنه تضبط الحقائق و المعارف إلا قليلة في كتاب "*فوائد الفؤاد*" مجموعة كلمات الشيخ نظام الدين أولياء و لما ذا كذلك ؟

فأجابه قائلاً : إن ما كتبه أمير حسن سجزي هو وافر و إنما تتعلق الحقائق و المعارف بحالة النشو و الوجد في أغلب الأحيان و إن أمير حسن اكتفى بذكر ما يجب للطالب.

يقول خواجه سلام الله الدهلوي : سأل زاهد من و الدي مرة هل هناك التذاذ روحي أم نفسي في مشا هدة الجمال الصوري و كنت أيضاً في مجلسه و قلت في نفسي يمكن أن يكون بعض أنواع من الجمال سبباً للإلتذاذ الروحي لبعض الأشخاص و كذلك على العكس، ثم قال خواجه: هب لو كان سبباً للإلتذاذ الروحي فلا بد أن يتجنب عنه أيضاً لأنه لا شئ فلا يحصل

ما يتمناه المرء و ينال ما لا يبتغيه.

يقول خواجه سلام الله الدهلوي : كان أخي "خوا جه كلمة الله" يقول دخلت على والدي مرة و كان في يده "بياض" (كراسته للمعلومات المختلفة) و كتب فيه أشعارا جيدة و خطر ببالي لو رأيته فالتفت والدي إليّ و قال: تعال أنظر ثم أعطاني إياه فلمّا حصلت عليه خطر ببالي لو وضعته عندي لعدة أيام حتى أختار منه بعض الأشعار فالتفت إليّ على الفور قائلاً: ضعه عندك لعدة أيام. أدركت مبلغ قوته الباطنية بهذه القصة.

يقول خوا جه سلام الله الدهلوي : حضرت مرة في خدمة و الدي و في يدي نسخة من "*نفحات الأنس*" تاليف الشيخ جامي إستفسرت منه بعض العبارات العويصة الدقيقة فقام بشرحها شرحاً وافياً ثم قال إن الاستفادة من هذا الكتاب سعادة عظيمة يعجز عنها البيان يابنيّ ! أتمنى أن تنال شيئاً حتى لا تبقي جاهلاً مثلي.

يقول خواجه سلام الله الدهلوي : ذات يوم كنت قائماً عنده أدير المروحة و كان هو جالساً في المراقبة مطاطئاً رأسه إذ وقعت المروحة من يدي على رأسه خطأً فاهتم بذلك سائر الحاضرين و لكن لم يتحرك الخواجه شيئاً ثم قال رافعاً رأسه لا يشعر بشيء من يكون في حالة الاستغراق و الإستهلاك. قال : لابدّ للطالب أن يواظب على شيئين:

١ ـ أن لا يجالس و لا يصاحب الزهاد الذين لايصاحبون مرشده و كيف يمكن أن يختار صحبة أولئك الذين يعتزلون عن أي طريقة و سلسلة بصورة مطلقة مع أنه لم يؤذن لإختيار صحبة أولئك الزهاد الذين يختارون طريقة أخرى.

و الأحسن أن لا يصاحب الطالب أحداً في بداية الأمر إلاّ أن يأذن مرشده و هكذا يحظى بالسلسلة و تنشأ فيه قوة باطنة .

٢ ـ لاينتقد أمراً يصدر من المرشد و إن كان مكروهاً في بادئ الأمر بل ينبغي له أن يبحث أولاً عن محله الصحيح أو يسأل من مرشده عن ذلك.

يكتب خواجه سلام الله الدهلوي : مرة روى والدي قصة علي كرم الله وجهه التي خاطبه فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ "يا أباتراب"

يقول خواجه سلام الله دهلوي : مرة أنشد الحافظ صادق و كان من أتباع والدي الصادقين هذا البيت لمولانا رومي:

علم حق در علم صوفي گم شود
إين سخن كے باور مردم شود

ثم استفسر منه معناه فالتفت والدي إليّ قائلاً : ينقسم القرب إلى نوعين الأول أن يكون العبد فيه ظاهراً و الحق باطناً و في هذا الشعر إشارة إلى هذا القسم و يدل الحديث القدسي أيضاً على ذلك و هو

"و بي يسمع و بي يبصر و بي ينطق" و يدعى ذلك "بقرب *النوافل*" و أما الثاني فهو أن يكون الحق ظاهراً و العبـد مستهلكاً . مستغرقــاً، باطنــاً. و هـذا الحديث يدل على ذلك "*إن الله ينطق على لسان عمر رضي الله عنه*".

و هذا يقال له قرب الفرائض و الآية الكريمة "*جاء الحق و زهق الباطل*" تشير إلى ذلك.

خلفاء الخواجه باقي بالله:

١- تاج العارفين الشيخ تاج الدين السنْبلى (رح)
٢ - خواجه حسام الدين (رح)
٣ - الشيخ إله داد الدهلوى (رح)

تاج العارفين الشيخ تاج الدين السنْبلى :

بعد ما انتهيت من ذكر أحوال أبناء خوا جة باقي بالله اتناول ذكر خلفاءه بالبحث و كان من المناسب أن أقدم أولاً تذكرة مجـــدد الألف الثانـــي و لكن لما كان هناك كتب مستقلـة بسيطـة فى تذكرتـه و لا سيما طبع عدد خاص لمجلة (٢) "*الفرقان*" الشهرية الأرديــة الصادرة من لكناؤ حــول حيــاتــه و لذلك لم أكتب هنا شيئـاً عن حياته و لكن إذا رزقنى الله أرتب مقالة فى ضوء رسائله . أما الآن اذكر أحوال الخلفاء التالين.

١- الشيخ تاج الدين السنْبلى
٢ - خواجه حسام الدين
٣ - الشيخ إله داد.

تعالوا نستمع إلى أحوال الشيخ تاج الدين السنْبلى أولاً على لسان الشاه ولى الله المحدث الدهلوى فهو يقول عنه: "كان الشيخ تاج الدين السنْبلى أول خليفة لخواجـ .امى أقام أخيراً فى مكـة المكرمـة و توفـى هناك و ما وجد هذا العاجز أحداً من مشائخ الهند يوليــه أهل مكـة إهتماماً مثل الشيخ تاج الدين السنْبلى و إنهم يذكرون كراماته الكثيرة.

و ذات مرة رأى رجل إسم الشيخ تاج الدين السنْبلى مكتوباً فى شهادة فسأل من الشاه ولـى الله المحدث الدهلوى من هذا؟ و طلب منه أن يعرفه و أقدم هناك ترجمة ما قاله الشاه ولى الله:

> "*كان الشيخ تاج الدين السنبلى من مكان سنبل عثمانياً من حيث النسب و هو الأخ الأكبر للشيخ أحمد السرهندى و خليفة من خلفاء الخواجه باقى بالله و درست "الاذكار النقشبندية" تاليف الشيــخ تاج الدين من و الذى عليه الرحمة الذى أخذها من خواجه خرد و أخذها خواجة خرد من الشيخ تاج الدين*

> بدون واسطة و ذهب الشيخ إلى مكة المكرمة بعد ما توفى خواجه باقى بالله و استوطن هناك و استفاض منه أهل مكـة و شاهدوا "خوارق كثيرة". و أبدى سلطان الروم عن إكرامه إيـاه غيابـاً و كنت أسمع عن خوارقه على لسان أهل مكة و غادر إلى جوار رحمة الله سنة ١٠٤٠هـ (٤) و دفن عنـد جبل قعيقعـان بمكـة و تشرفت بزيارة قبره".

(مكتوبات فارسى شاه ولى الله الدهلوى مطبعة مكتبة نذيرية بدهلى)

و يكتب عنه فى " الانتبا ه":

> "يقول الراقم إن الشيخ تاج الدين السنبلى كان من خلفاء خواجـة باقى بالله و له كتيب فى "الأشغال النقشبندية" و كان والدى الشاه عبدالرحيم الدهلوى يحبه كثيراً و نقلها بيده من بعض أصحاب الشيـخ تاج الديـن و كان يرشد مريديه فى ضوءه و درسته دراسة دقيقـة بحثـاً و درايـةً ثم نقل "الانتباه فى سلاسل أولياء الله" كاملاً و يكتب فى موضع من هذا الكتاب.
>
> " و الشيخ عبدالله لبس الخرقة بيد الشيخ عبد الله باقيشر المكى عن الشيـخ تاج الدين السنبـــلى نزيل مكـة عـــن الخواجه محمد باقى بالله"

تعالوا إسمعوا الآن عدة كلمات عن الشيخ تاج الدين السنبلى بلسان علامة العصر السيد مرتضى البلغرامي ثم الزبيدى شارح *القاموس* الذى قضى جزءاً كبيراً من حياته فى اليمن و الحجاز و مصر و تعرف بذلك عظمته فإنه يكتب فى كتاب "*النفحة القدسية*":

> "إن الشيخ تاج الدين السنبلى نشر الطريقة النقشبندية فى انحاء بصرة، و اليمن، و الاحساء ، و نجد، و الحجاز، و كان عدد كبير من مريديه فى هـذه الأماكن".

(ماخوذ من رود كوثر ص ١٤٥)

رسالة من مجدد الألف الثانى إلى الشيخ تاج الدين:

توجد فى المجلد الأول للرسائل رسالة وجهها مجدد الألف الثانى إلى الشيخ تاج الدين أود أن اقدم بين أيديكم عدة سطور منها يتجلى فيها اللون الأدبى الخاص و الإخلاص و المحبة و هى تدل أيضاً على فضله و مكانته الرفيعة ولعله كتبها عند ما انتهى الشيخ من أسفاره إلى بلاد الشام و الحجاز و أراد الرجوع إلى الهند فانظروا كيف يخاطبه بأسلوب عاطفى.

" الحمدلله و سلام على عباده الذين إصطفى لقد فرح المحبون و الأصدقاء كثيراً بخبر قدومك لله سبحانه الحمد و المنة على ذلك و انصف يا سماء هل الشمس عند طلوعها من جانب الشرق أحسن منظراً أم القمر الجوّال في العالم قاصداً من جانب بلاد الشام و إذا كنت آتيا فتفضل أسرع ما يمكن لك فعيون الأصدقاء تنتظرك بلهف و يتمنون استماع أخبار بيت الله بشدة".

و هنا أقدم اقتباساً مما كتبه الشيخ محمد هاشم الكشمي في "زبدة المقامات":

" كان الشيخ تاج الدين من أبناء الصلحاء و الأتقياء و أعظم خلفاء الخواجه في الهند بايع أولاً على يد الشيخ إله بخش كرمكتيشري و كان الشيخ يوليه شفقة و عناية و أحال نفسه إلى خواجه بعد ما توفي الشيخ رغم أنه كان من خلفاءه و اختار صحبته و أحب الخواجه ذلك و أفاض عليه حفاوة وإكراماً و جعله مجالس خلوته و موانس مجلسه الخاص و يقولون أنه لم يكن أحد من مريدي خواجه أقدم منه صحبة و لم يكن أحد سواه يجترىء على إستفسار أحواله و مسألة أسراره"

يقول الشيخ الكشمي "إني سمعت من الشيخ تاج الدين يقول لما عين الخواجه على منح الإجازة لي خطر بباله لو رأى الشيخ تاج الدين أيضاً في المنام أن أحداً من كبار النقشبندية يأذن له لكان جيداً فرأيت في المنام أني في مجلس أصحابه و هو يضع قلنسوته على رأسي و أولاني بشفقة وافرة و لما ذكرت قصة هذه الرؤيا أمام الخواجه ابتسم فبين كل ما خطر بباله عند ذلك و لما منح الخواجه الإجازة لاح في نظر الشيخ تاج الدين تأثير جديد يتغلب تأثير العاطفة على كل من يعلمه الطريقة و بدأ يظهر عليه الأحوال على الفور".

و سافر إلى لندن بعد ما حصل على الإجازة و لما إلتفت إلى الإرشاد هناك لامه بعض حساده فكتب إلى شيخه متضجراً من لوم العارفين وغيرهم فأرسل إليه كتاباً مفصلاً رداً على ذلك و أذكر فيما يلي عدة جمله:

"لاتنظروا إلى ملامة أهل سنبل و ارحموهم لأنهم (الحساد) انحرفوا من العقل السليم و الحمد لله أن تحمل الطعن و الملامة ميزة أولياء الله و لي رأي خاص في هذا الصدد فإني أفكر في نفسي عندما يلومني أحد فينكشف لي عيب من العيوب و أرى هذا اللوم موعظة في حقي و أخبرني ماذا عليك من

ملامة أهل سنبل؟ ألم تقبل عبادتك؟ أم يذهب صفاء قلبك؟ أم تكون مطروداً من عند الله". معشوق ترا و بر سر عالم خاك.

والسلام

و لما توفى الخواجه عزم الشيخ تاج الدين على الرحلة فسافر إلى بلاد الهند و كاشمير و تشرف بزيارة الحرمين الشريفين و تكوّن إرتباط خاص به من سكان الحرمين و إستفاد منه الشيخ "علاّن" الذى كان من أكابر الحرم وليس له قرين و لا مثيل في العلم و العمل و التقوىٰ و الرياضة و كان الشيخ محمد يميل إلى الطريقة النقشبندية قبل ذلك و قام بترجمة كتابْ "رشحات" في اللغة العربية أيضاً ليتطلع العرب على حسن أطوار أكابر النقشبندية ولطافة أقوالهم و علوّ أحوالهم و يتمنى نفسه أن يأتي أحد من كبار هذه السلسلة في الحرم فيتلقى منه هذه الطريقة فلمّا وصل الشيخ تاج الدين دخل على الشيخ باخلاصٍ تام و سمعت الشيخ تاج الدين يقول: إن العرب كانوا يحسبونني الشيخ محمد علاّن و توفى الشيخ محمد سنة ١٠٣١ هـ و جاء الشيخ تاج الدين مرة أو مرتين إلى الهند من الحجاز ثم رجع إليها و ذهب أخيراً إلى ولاية "لهيا" و "بصرة" و اتصل هناك بحشد عظيم و أصبح حاكمها محباً له و كان مجلس أصحابه في بصرة رائجاً إذ نادت قافلة الحرمين بالرحلة فتوقف الشيخ فوراً من المشيخة و طريقة التعليم و لبس الإحرام و توجه إلى بيت الله الحرام و روضة النبى عليه الصلوة و التسليم راكباً على الناقة مع خادمين في حالة الفقر. يقول صديق لي يدعى بـ "صالح" و الحقيقة كان اسمه ينطبق عليه تماماً زرت الشيخ فى الحج سنة ١٠٣٧ هـ عند العرفة و قد اتسخ لباسه لطول الزمان مغبر الوجه ثائر الرأس أبيض اللحية و احمرت عيناه بمشقة السفر فتأثرت كثيراً عند ما رأيته يقول صالح قال لي الشيخ لقد جبت المدن العديدة و الصحارى سنوات و الان أكنس بيت ربّي حتى أموت.

و يكتب الشيخ محمد هاشم الكشمى فى النهاية.

"أبقى الله هذا التذكار الباقي إلى مدة طويلة و ألف الشيخ كتباً عديدة و إنه قام بترجمة بعض كتب النقشبندية في العربية ليستفيد بها العرب و كتب كتيباً رداً على من زعم أن طريقة "الإرشاد و الإرادة" بدعة و اثبت صحته من السنة".

أخبار تاج الدين السنبلي كما ورد في" اسرارية":

أسرد فيما يلي ما كتبه السيد كمال السنبلى عن أخباره في كتاب "*اسرارية*" و كان من نفس بلده:

"يقول خواجه خرد: إن الشيخ تاج الدين اصطحب الخواجه بسبب كفايته

العالية و ترغيب خواجه حسام الدين بعد ما توفى مرشده الشيخ إله بخش كرمكتيشرى و كان قد إنتهى من سلسلة سلوك عشقية عنده و تشرف بمراتب عالية و ألطاف غير منتهية في مدة قصيرة و كان اصحاب الخواجه يغبطونه بسبب "الإتحاد" معه و إتجه إلى الحرمين الشريفين بعد سنوات من وفاة الخواجه و أقام هناك مدة طويلة و اصطحبه كثير من الناس و استفادوا بالطريقة النقشبندية و الحقيقة كان شيخ الحرم لعصره و كان من كبار المتصوفين و أصحاب المؤلفات القيمة .

و قال مرشدى أيضاً إن الشيخ تاج الدين قال إن حقيقة الكعبة أرفع من الحقيقة الإنسانية و الحقيقة المحمدية هي أرفع من حقيقة الكعبة أيضاً و فارق الشيخ تاج الدين هذه الدنيا يوم الجمعة قبل المغرب ١٣/جمادى الأولى سنة ١٠٥١هـ و دفن قريباً من الحرم في ذلك الرباط الذي بناه نفسه في مكة المكرمة يوم الخميس بتاريخ ١٤/ جمادى الأولى يزار و يتبرك به (أسرارية قلمى)

أخباره كما وردت في المجلد الخامس من نزهة الخواطر :

تحدث الحكيم السيد عبد الحي البريلوى ثم اللكنوى عن أحوال الشيخ تاج الدين السنبلى بكل شرح و تفصيل في المجلد الخامس لكتابه الشهير "نزهة *الخواطر* (٥) الذى يشتمل على تذكرة أعيان و أكابر الهند من القرن الحادي عشر للهجرة و إن هذا الكتاب يزودنا بمعلومات كثيرة لا توجد فيما سواه من الكتب.

"الشيخ العالم العارف تاج الدين بن زكريا بن سلطان العثماني النقشبندى الحنفى السنبلى الولى المشهور ولد و نشأ في بلدة السنبل (٦) و قرأ العلم و ساح البلاد في طلب شيخ الطريقة فلما وصل إلى أجمير تلقن من روحانية الشيخ معين الدين حسن الأجميرى طريق النفي و الإثبات على كيفية مخصوصة في الطريقة الجشتية يسمونها حفظ الأنفاس و أمر أن يجلس و يشتغل في الذكر في بلدة ناغور فيها قبر الشيخ حميد الدين الصوفي الناغورى فسافر إلى ناغور و أقام فيها يشتغل بالذكر مدة مديدة ثم خرج في طلب شيخ فساح في الجبال (٧) و البرارى و الأغوار و الأنجاد حتى وصل إلى الشيخ الله بخش الشطارى الكرمكتيسرى فتلقاه الشيخ بحسن القبول و أظهره له إنه كان منتظراً له و كان طريقة الشيخ أن لا يلقن أحداً إلاّ بعد إدخاله في الخدمات و الرياضات الشاقة التى تنكسر بها النفس و تحصل بها التزكية فكان يحمل الماء إلى المطبخ فوق طاقته فبعد ما تم له ثلاثة أشهر قال له الشيخ قد تم أمرك ثم لقنه ذكر العشقية فاشتغل به و لم يزل في خدمته حتى وصل إلى الكمال و التكميل و أجازه الشيخ بالطريقة العشقية و القادرية و الجشتية و المدارية و حصلت له الإجازة من رئيس كل

طريق و كذلك حصلت له الإجازة في الطريقة الكبروية من روحانية الشيخ نجم الدين الكبرى و له رسالة في بيان سلوكهم و كان خدم الشيخ عشر سنين.

ثم لما وصل الشيخ الأجل عبد الباقي النقشبندي بلاهور كتب إليه كتاباً و كان الشيخ تاج الدين حينئذ في سنبل فلما أتاه كتابه عزم على زيارته فلما وصل إليه توجه إلى سلوك الأكابر النقشبندية فتم سلوكه في ثلاثة أيام ثم أجازه الشيخ بتربية المريدين و هو أول من أجازه و صحبه عشر سنين و كانت الصحبة بينهما كصحبة شخصين لا يدرى أيهما عاشق و أيهما معشوق و كانا يأكلان في إناء واحد و يرقدان على سرير واحد فلم يزل مفيداً بالتسليك بسلوك النقشبندية بعد ما أجازه الشيخ عبد الباقي المذكور و رخص له و كان يقول إن الأكابر النقشبندية هم أرباب الغيرة و يذكر أن بعد إجازة الشيخ اشتغل بالتربية على طريق الأكابر و كان إذا أتاه طالب يريد الطريقة العشقية أو غيرها يلقنه فيها و يربيه حتى أنه في بعض الأيام حضرت روحانية الشيخ الكبير عبيد الله الأحرار رحمه الله للشيخ عبد الباقي رحمه الله تعالى و قال إن تاج الدين يأكل من مطبخنا و يشكر غيرنا فأخرجناه من النسبة فقال الشيخ عبد الباقي رحمه الله اعف عنه هذه المرة حتى أخبره فكتب إليه هذه الواقعة فترك كل ما كان غير هذه السلسلة و حصر التربية و التلقين فيها فلما توفي الشيخ عبد الباقي رحمه الله اغتم بموته و حزن عليه حزناً شديداً و أخذ في السياحة فسافر إلى بلاد الهند و العراق و العرب حتى ألقى عصا التسيار بمكة المحترمة و سكن بها و أخذ عنه خلق كثير من العلماء و المشائخ.

قال إبن فضل الله المحبي في *خلاصة الأثر* إنه كان شيخ الطريقة النقشبندية و رابطة الإرشاد إلى المنازل لسالكين في السلوك و واسطة الامداد للمواهب الرحمانية من ملك الملوك و شيخاً كبيراً مهاباً حسن التربية و الدلالة على الوصول إلى الله تعالى صحبه خلق كثير من المريدين و من صحبه و لازمه الأستاذ أحمد أبو الوفاء العجل العجيل ولد أحمد المذكور و الشيخ محمد مرزا بن محمد المعروف السروجي الدمشقي و الأمير يحيى بن علي باشا و غير هم و ألف كتباً منها تعريب *النفحات* للعارف عبد الرحمن الجامي و تعريب *الرشحات* و رسالة في طريق السادة النقشبندية جمع فيها الكلمات القدسية المأثورة المروية عن حضرة الخواجه عبد الخالق الغجدواني المبنى عليها الطريق و شرحها بأحسن بيان و *"الصراط المستقيم"* و *"النفحات الإلهية في موعظة النفس الزكية"* و *"جامع العوارق"* و قد أفرد ترجمته تلميذه السيد محمود بن أشرف الحسيني (٨) في رسالة سماها *تحفة السالكين في ذكر تاج العارفين* إنتهى و قد نقل المحبي عن الرسالة المذكورة أشياء من كشوفه و كراماته لانطيل الكلام بذكرها

و قال الشيخ أحمد النخلي المكي في بعض رسائله و هذا الشيخ

تاج الدين رحمه الله ونفعنا به في الدنيا و الآخرة كان ولياً لله عارفاً به أقام بمكة المشرفة على حلول ألف و أربعين من الهجرة مدة مديدة و مات بها انتهى مانقله الشيخ ولي الله الدهلوي عن شيخه أبي طاهر بن إبراهيم الكردي المديني.

و قد أخذ عنه غير من ذكر الشيخ عبد الباقي بن زين المزجاجي الزبيدي و الشيخ عبد الله بن شيخ بن عبدالله بن عبد الرحمن الحضرمي العيدروس و الشيخ محمد علّان المكي بتشديد اللام و الشيخ إبراهيم بن حسن الحنفي الأحساني و الشيخ أبو بكر بن سعيد بن أبي بكر الحضرمي و الشيخ عبيد الله بن محمد باقي الدهلوي و السيد محمودبن أشرف الحسيني الامروهوي و خلق آخرون و من مصنفاته غيرما ذكر رسالة في أنواع الأطعمة و كيفية طبخها و رسالة في كيفية غرس الأشجار و أخرى في أنواع الطب و ذكرها محمود بن أشرف الحسيني الامروهوي في *تحفة السالكين*

من ألفاظه القدسية.

من ألفاظه القدسية ماقال في مفتتح رسالته في سلوك الطريقة النقشبندية إعلم وفقك الله أن معتقد السادة النقشبندية قدّس الله أسرارهم هو معتقد أهل السنة و الجماعة و طريقتهم دوام العبودية التي لاتتصور بغير أداء العبادة و هي عبارة عن دوام الحضور مع الحق سبحانه شعوراً بالغير مع الذهول عن صفة الحضور بوجود الحق سبحانه و لايحصل هذه السعادة العظيمة بغير تصرف الجذبة الإلهية و لا سبب في طريقة الجذبة أقوى من صحبة الشيخ الذي سلوكه بطريق الجذبة قال الشيخ أبو علي الدقاق قدّس سرّه الشجرة التي تنبت بنفسها لاثمر لها و إن كان لها ثمر يكون بغير لذة سنة الله تعالى جارية على أنه لابدّ من السبب فكما أن التوالد و التناسل الصوري لايحصل بغير الوالد و الوالدة كذلك التوالد المعنوي حصوله بغير المرشد متعذر قال في الرسالة المكية من لا شيخ له فالشيطان شيخه انتهى.

توفي قبل غروب الشمس يوم الأربعاء ثامن عشر من جمادى الأولى سنة خمسين و ألف و دفن صبح يوم الخميس في تربة أعدّها له في حياته في سفح جبل قعيقان و ضريحه ظاهر للزيارة و قعيقان كزعيفران جبل بمكة و جهه إلى أبي قبيس لأن جرهم كانت تضع فيه أسلحتها فتقعقع فيه أو لأنهم تحاربوا فقعقعوا بالسلاح كما في "*خلاصة الأثر*"

خواجه ابرار و خواجه حسام الدين احمد:

يكتب السيد كمال السنبلي في أسرارية:

"كان خواجه حسام الدين من كبار أصحاب خواجه باقي بالله و عظماء

أهل التصوف و ينتهي نسبه إلى خواجه حسن بصري رحمه الله و كان الإمام زاهد خير المقرين من أجداده للام و من أجداده من كان من مصاحبي سلاطين تيمورية و أمراء ها و كان مبارك شاه أحد أجداده يحظى بحفاوة و كرامة عند صاحب القران تيمور و يبدو ذلك من تلك الفرامين التي صدرت باسمه و إشتهر أبوه مير نظام الدين أحمد خان بلقب غازي خان و هو من أمراء الإمبراطور أكبر و أكابر علماء عصره علماً و معرفةً.

ولد خواجه حسام الدين أحمد سنة ٩٧٧ هـ و يتحصل تاريخ ولادته بكلمة "شيخ جنيد"

و ذات مرة سأل مير نظام الدين أحمد إبنه خواجه أبرار و كان له يومئذ خمس سنوات من العمر يابني !

أى شئ أحسن في هذه الدنيا؟

فاجاب الولد الذكي مرتجلا : ذكر الله و حبّه.

و لما توفي مير نظام الدين أحمد سنة ٩٩١ هـ أو سنة ٩٩٢ هـ (٩) فادخل الإمبراطور إبنه خواجه أبرار في زمرة الأمراء على أنه جدير بالخدمات الجيدة و لما نشأت فيه "نزعة السلوك" بدأ يتظاهر نفسه بانه مجنون و يأتي بأعمال تضاد الأحكام الصادرة و هي تخالف قوانين الحكومة و دستورها و قدم يوماً أمام الإمبراطور في مثل هذه الحال و كان يومئذ يوم "نوروز" و بدأ ينظر يميناً و شمالاً كمجنون و أنشد هذا الشعر أمامه:

اين همه طمطراق كن فيكون
ذره نيست پيش أهل جنون

فلمّا أحس الإمبراطور أنه تظاهر أمام الناس كمجنون على غير حقيقة و هو لايرضى بمنصب الإمارة فرخّصه و عزله عن الإمارة فاستبدل العباء بالقباء و دخل على خواجه باقي بالله و نال البراعة و الكمال في مدة قصيرة

قال مرشدى خواجه خرد إن خواجه حسام الدين أحمد قال لم يغامرني فرح و سرور قط مثلما غامرني يوم أنهى الإمبراطور وظيفتي و خلعني عن الاقطاعية و المنصب.

قال مرشدى أيضاً لقد رأى خواجه حسام الدين أحمد ليلة رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام و هو يقول إن والدك لقي حفاوة و تجاوبا من الناس و تكون أكثر منه تجاوبا و قال مرشدى أيضاً لم يلتفت خواجه أبرار إلى المشيخة و الإرشاد رغم أنه حصل على الإجازة من خواجه الأكبر و عاش حياة نادرة و تغلب عليه حب الله و قام بأعمال و وظائف لايتمكن عليها عامة الناس و لله در كفايته العالية و قوته الباطنة و أصبح خليفة خواجه الأكبر بعد ما توفي و كانت له نسبة خاصة بخواجه الأكبر و كان دائما يتوق إلى استماع أحاديث مرشده.

قال لي شيخي ذات مرة فرق خواجه الأكبر بين خواجه حسام الدين أحمد و الشيخ تاج الدين السنبلي على أن خواجه أكثر من الشيخ علماً و معرفة و يفوقه الشيخ في الحال و النشوة الروحية.

قال لي شيخي لقد بايعني خواجه أبرار في المنام و لما طلبت منه أن يعلمني الطريقة قال إنك تتعلمه بنفسك..

قال لي مرشدي رأيت في المنام أن وجه خواجه أبرار يتلألا كالبدر قال مرشدي : سالت خواجه أبرار هل المحبة أفضل أم المعرفة أجاب المحبة أفضل.

قال مرشدي لقد وضع خواجه الأكبر يده على وجه خواجه الأبرار عند الوفاة و أخذ يده في يده.

قال مرشدي إن كل ما أحظى به من إيمان و علم و طريقة و زهد يعود الفضل في ذلك إلى خواجه أبرار.

قال مرشدي ذات مرة قال له الناس أن شابا فلانا خطيب فلانة فماذا ترى في ذلك ؟ فأجاب إنه يعرف السباحة فتعجب الناس من هذا الجواب لأنه لا علاقة له بالسؤال ثم عاود نفس السوال فردّ عليه نفس الجواب و لم تنقض أيام حتى ذهب ذلك الشاب إلى النهر ليغتسل فغرق فيه و مات.

و لما بلغ السنة الأخيرة من حياته قال يوماً لإبنه خواجه سراج الدين محمد إن أبي إنتقل إلى رحمة الله و كنت يومئذ إبن خمسة عشر سنة و كذلك اليوم أنت أيضاً و مرض في أغره في هذه الأيام و أومأ إلى إنشاد الأبيات الغزلية لمولانا رومي في هذه الحال ففعلوا

و يقولون أنشد القاضي أفضل الذي كان رجلا عالماً فاضلاً في اخر يوم من حياته هذا البيت.

دل آراى كه دارى دل دروبند
دگر چشم از سوئے عالم فروبند

فاضطرب خواجه قليلاً لأن هذا الشعر يكمن في طياته تلقينا في غير محله فقال رجل يدعى بدو ست محمد إن خواجه أغلق عينه منذ بلغ رشده و لا نبالغ إذا قلنا أنه خاضهما عن الدنيا ففرح خواجه لما سمع هذه المقال و أيده بإشارة و بدت ملامح الفرح و السرور عند ذلك و غادر إلى رحمة الله في نفس اليوم شهر صفر سنة ١٠٤٢ هـ(١٠) و نقل تابوته إلى دهلي بعد مدة و دفن بجوار قبر خواجه الأكبر.

و يكتب السيد كمال السنبلي في آخره كنت جالساً يوماً في مجلس خواجه خرد إذ جاء خواجه حسام الدين أحمد و ساله عني من هذا الشاب؟ فأجاب هذا من مريدي هذا العاجز ثم قال شيئاً و كنت جالساً مطاطناً راسي و كان خواجه يحدق فيّ.

و كتب شيخي في شرح بعض المواضيع من "تفسير بيضاوي" في أيام

شبابه و كان فيها حقائق غريبة و ذهب بهذا الشرح إلى شيخي خواجه أبرار ففرح كثيراً و شجعني و شكرالله عزو جل و قال هذه الملكة التي حصلت لك هي موهبة من عند الله عزو جل و من المصلحة أن تحفظه عندك لمدة و لا تبديه أمام الناس لتتقى من حسد الحساد و سوء نظرهم.

و قد ثبت إصابة النظر السوء من هذه الآية في سورة يوسف "*يا بنيّ لا تدخلوا من باب واحدٍ و أدخلوا من أبواب متفرقة*" (سورة يوسف)

و ذات يوم جرى الحديث عن التصوف عند خواجه أبرار فقال يمكن الحصول على حقائق هذا العلم و دقائقه من خواجه حسام الدين و إن هذا العلم الذى أصبح نادراً جاء في حظ خواجه خرد بكامله.

أخباره كما جاء في زبدة المقامات.

يقول الشيخ الكشمي:

"إن خواجه حسام الدين من أعظم خلفاء خواجه مرتبة و كان أبوه يدعى بالقاضي نظام الدين بدخشاني و هو كان من تلامذة الشيخ سعيد تركستاني و الشيخ أحمد جنيد و كان له أيضاً عدد كثير من التلامذة و قدر القاضي نظام الدين بدخشاني أنه دخل في زمرة أمراء سلطان الهند "أكبر" و توفي سنة ٩٩٢ هـ و بعد ذلك أصبح إبنه خواجه حسام الدين مقيداً بقيد الإمارة و المنصب" و لكن قلبه كان محفوفاً بحب الفقراء و المساكين رغم ذلك. و وصل إلى خدمة خواجه قدّس الله سرّه في تلك الأيام و تغلبت عليه نزعة الزهد ببركة مقابلته ثم سافر إلى ماوراء النهر حتى استغرق في الزهد تدريجيا و ترك الإمارة و الرياسة وراء ظهره و إختار الملابس الخشنة كإبراهيم بن أدهم تاركاً المنصب و المال و كان السلطان يوليه شفقة زائدة و علاوة على ذلك كانت له مصاهرة مع ركن السلطنة أبي الفضل (١١)

و بذل السلطان و أبوالفضل و عائلتهما أقصى" الجهود لينصرف من الزهد إلى الإمارة و الثروة و لكن لم يجد ذلك شيئاً و تجشم خواجه في هذا الصدد مشقات عظيمة و لكن لم ينحرف شيئاً عن طريقته بل استقام دائماً.

و بدأ يترقب رجوع خواجه من ماوراء النهر اخر الأمر و إختار الفقر و العزلة فلما رجع داوم على خدمته المباركة و تلقى منه الأذكار و المراقبة كاملاً و يقال كان أبو الفضل يزاحمه في تلك الأيام أيضاً فشكاه خواجه أبرار أمام المرشد متضجراً و قال لا أطمئن سيتم أمره بعد أيام فحدث كذلك و قتل أبو الفضل في ذلك الزمن. و قد قام بخدمات خواجه سنوات عديدة و أصلح أخلاقه و أطواره و أذن الشيخ له المبايعة أيضاً و لكنه لم يخترها بسبب مزاجه الحر و لكنه لم يلقن الذكر إلآ رجلاً واحداً إمتثالاً بحكم خواجه ثم اعتذر من خواجه قائلاً لا تكلفني هذا الأمر فإني معذور عنه فلمّا رأى خواجه أنه لا يرغب في ذلك تقبل عذره و تنفس الصعداء ثم قال إنه أحسن

حيث تخلى عن هذه المسؤلية و كان خواجه حسام الدين أحمد من عواد خواجه المختصين خلال مرضه الذى توفى فيه و تشرف بإفاضات كثيرة و تم عملية تكفينه و تجهيزه و تدفينه حسب مشورته و مازال يخدم أخويه الكبيرين خواجه الأكبر و خواجه الأصغر (خواجه كلاں ـ خواجه خورد) بعد وفاته و أثمرت جهوده فى حقهما و لقد شكر مجدد الألف الثانى خواجه حسام الدين أحمد فى كتابه الذى وجهه إلى أبناء مرشده بهذه الكلمات الدعائية.
"جزى الله تعالى خواجه حسام الدين أحمد أحسن الجزاء حيث كلّف نفسه لتلك الأمور التى تلزمنى و لازم عتبة خواجه حتى إطمئننا"
يكتب مولانا الكشمى:

"من عادة خواجه حسام الدين أحمد أنه يصلى الفجر فى مسجد فيروز أبادى ثم يراقب قليلا و يتجه إلى ضريح مرشده بعد صلوة الإشراق و يقع هذا الموضع على مسافة ميلين تقريباً خارج مدينة فيروز أباد و يقضى طول النهار مشتغلا بالتلاوة و العبادة و المراقبة و يتلو خمسة عشر جزءاً كل يوم من القرآن الكريم و يطالع عدة أحاديث من مشكوة المصابيح مع الترجمة ثم يرجع إلى بيته و يتعهد عائلته و لكن إذا نزل عنده ضيف فيرجع إلى البيت قبل الوقت المعد و يوجز أعماله المعتادة ثم يقوم بحفاوة و إكرام ضيفه.

و بلغت الشفقة على خلق الله إلى درجة كان يكتب التوصيات إلى الأمراء و الأغنياء إذا جاءه ذو حاجة رغم أنه كان يكرههم فقيل له فى مجالسه ازدرى بعض الأغنياء توصياته و طلبوا منه أن لايكتب لاحد و لكنه كان يضطر إلى كتابتها إذا جاءه سائل ذو حاجة لانه كان مفطوراً على شفقة خلق الله عزو جل و إنه يحذو حذو النعل بالنعل مع مرشده فى هذا الصدد فإن مرشده أيضاً كان يساعد الفقراء و المساكين في قضاء حوائجهم عند الملوك.

و ذات مرة قال لخواجه أبناءه إن صيانة العرض شئ لازم و التمسوا منه أن لا يكتب التوصيات فقال ماذا يجدى ذلك العرض الذى لا ينفع المسلمين و لا يخضر به قلوبهم ولقد حدثت كدورة بينه و بين المجدد لعدة أيام بعد خواجه الأكبر و لكن إنقشع غبارها أخيراً بفضل الله و حدث الإخلاص و الصفاء بعده بينهما حتى أنه بعث إبنه الأكبر إلى خدمة مجدد الألف الثانى ليربّيه فأولاه شفقة و عناية و تتجلى هذه الحقيقة أيضاً من الكتاب الذى وجهه خواجه أبرار رداً على كتاب الشيخ تاج الدين السنبلى فانه كتب فى آخره.

"لقدرزق أبناء الأولياء بالطلب الصادق مع السعادة الأخرى و إنى تجربت أن السفر و البعد عن الأبوين يجدى الأولاد فى حقل التربية و قد إنتهى ابنى إلى سرهند بإذن الشيخ إله داد و تدل رسائله على ما كان يحظى به من السعادة و ما كان الشيخ أحمد سرهندى يوليه من إهتمام و إنه أفاض

عليه الدعاء و الإلتفات في وقت ملائم و علاوة على ذلك أن تلك المعاملة التي كان الشيخ أحمد السرهندي يقوم بها إزاء مريدي مرشدي و أسرته توجب التشكر و الإمتنان و تجلت فيهم الألطاف الإلهية و الرقي العظيم و الجدير بالذكر إنها ظهرت في "خلعة الشريعة" و إنه يراعي ظاهر الشريعة إلى حـد أن أعـداءه و منكريه لا يعيبونه في هذا الصدد و لا تسأل عن مريديـه فإنهم كثيـرون و لايزالـون يزدادون يـوماً فيـوماً ".

يقول مولانا محمد هاشم الكشمي عند ما كنت أذهب من برهان فور إلى سرهند في خدمة الشيخ أحمـد السرهنـدي قابلت فـي دهلي خواجه حسام الدين أيضاً فقال عند ذلك مع الكلمات الناصحة الكثيرة أحسنت أن عزمت على الحضور عند عتبة المجدد و فيما أرى أنه: لا يوجد على وجه الأرض من يقوم بتربية أهل الحق مثله لأن له مرتبة عالية في علم الدين و إتباع السنة أيضاً و مطلع على خفايا الطريق الباطن و إن الأوصاف التي مرّ ذكرها يمتاز فيها خواجه أحمد رغم أن خلفاءه الآخرين يحظون بالنسبـة الخاصـة و يستطيعون أن ينفعوا طالبي الحق.

و لما اختار مجدد الألف الثاني صحبة الإمبراطور جهانغير بعد القيد في حصن غواليار و شاعت الأخبار أنه يريد أن يفك حبل هذه الرفاقة فكتب المجدد إلى خواجه حسام الدين مبشراً في هذا الصدد و أقدم فيما يلي إقتباساً مما كتبه خواجه أبرار رداً عليه.

"لقد سررت و تشرفت بما كتبت إليّ و لاتسأل عن الفرح و الإغتباط الذي غامرنـي عندمـا قرأت نبأ إطلاقك عن قيد الإمبراطـور و ما أحسـن لو جعلت الإقامة في دهلي نصب عينك بعد الرجوع من الجند و تضيء هذه المدينة بفيوضك و أنوارك و لو كان كذلك ليكون أحسن و لو وظفت المتكاسلين هناك لكان خيراً و تنفق أسـواق الذوق و الطلب مـرة أخـرى و هكذا يفوح الطيب من الأزهار الجميلة و سرّ الله أحباءك برؤيتك و كما فرح الآذان بنبأ إطلاقك فلتستفض العيون من رؤيتك حتى تنال حظهـا و اكتفي بذلك أطال الله بقاءك".

يكتب الشيخ الكشمي و يتبلور الإخلاص الوافر من رسالة التأبين الذي وجهـه إلى خواجه حسام الدين أحمد بعد وفاة المجدد و أقدّم هنا عدة كلمات من ذلك الكتاب.

"لم تحزن وفاة المجدد مخلصيه و خدامه فقط بل ليشمل هذا الحزن الفادح كل من يمت إلى الإسلام بصلة ما و ينبغي لكم أن تشكرو الله ألف مرةٍ على أنه منح لكم فرصة الإستفادة من بركاته و كفاياته"

يكتب الشيخ الكشمي أن خواجه حسام الدين أحمد يراعيني كثيراً فإنه وجّه إليّ عدةَ رسائل و كان يكتب إليّ حيناً لآخر بعد مدةٍ قصيرةٍ عندما كنت مقيماً عند عتبته و كان يركز على استقامـة الخدمـة و آداب الصحبـة

و رأيته في المنام أحياناً و نصحني و إنه يستحب أشعاري كثيراً و إنه يطلب مني أن أكتب إليه الأشعار في الرسائل أغلب الأحيان.

يكتب الشيخ الكشمي رحمه الله ذات يوم كنت جالساً في خدمته إذ بدأ أحد من الحاضرين يشكو الأمراء و الأغنياء المعاصرين على أنهم لا يرتبطون بالفقراء و المساكين و لا يكرمونهم كما كانوا يكرمونهم فيما سبق من الزمن.

قال خواجه حسام الدين أحمد يا أخي إعتبر ذلك من حكمة الله و هذا شيء حسن في حق فقراء هذا العصر بأن الأغنياء لا يلتفتون إليهم و كان الفقراء في الزمن الغابر مختلفين عن فقراء هذا الزمان فإنهم كانوا يتجنبون الأغنياء و أصحاب الدنيا فكلما كانوا يقتربون منهم هم يبتعدون عنهم و لكن الفقراء في هذا الزمان ليسوا كذلك فلو مال إليهم الأغنياء لاختلت أشغالهم و تغيرت أحوالهم و هذا من فضل الله أنه جعل قلة عناية الأغنياء و خشونتهم حفاظا على الفقراء و إلا يخاف أن ينحرف كثير منهم عن طريقهم بسبب مخالطة الفقراء و أخيراً يكتب:

"الآن سنة ١٠٤٠هـ و يناهز خواجه حسام الدين من عمره ستين سنة أو أكثر و أدعوا لله أن يطيل بقاءه بين أصدقاء خواجه باقي بالله".

رسائل المجدد رحمه الله ـ إلى خواجه أبرار

و إن الرسائل التي و جهها المجدد رحمه الله إلى خواجه ابرار تصطبغ بصبغة علمية و هي ذات أهمية كبيرة. و عددها كما يلي.

عددها في المجلد الأول. ـ ٩

عددها في المجلد الثاني ـ٣

عددها في المجلد الثالث ـ٣

ورد ذكر خواجه أبرار أيضاً خلال تلك الرسائل التي وجهها إلى أبناء خواجه باقي بالله و إنه ذكره باسم "مرزا جيو" في رسالة إلى أبناء خواجه و في فهرس الرسائل ورد ذكره بإسم مرزا حسام الدين أحمد و توجد رسالة أو رسالتين بإسم إبنه خواجه جمال الدين أيضاً.

و أتناول إن شاء الله بعض هذه الرسائل بشيء من الشرح و التفصيل خلال تذكرة الشيخ إله داد.

الشيخ إله داد الدهلوي

يكتب السيد كمال السنبلي في *اسرارية*:

" كان من أكابر أصحاب شيخ الهداد خواجه باقي بالله و بلغ إلى قمة البراعة بسبب أخلاقه الفاضلة و تصفيته الباطنة و دوام حضوره".

و قال مرشدي خواجه خرد لا ينبغي الثناء على الشيخ الهداد من

حيث كراماته و خوارقه و الحقيقة أنها تشرفت بذاته قال لي مرشدي يقول خواجه أبرار (خواجه حسام الدين الدهلوى) لما رأيت شيخ الهداد في بداية الأمر في غاية من الصلاح و السلامة و متحليا بأوصاف و استقامة بالغة قلت في نفسي هذا أقصى مراتب أولياء الله و لكن رأيت فيمابعد مرتبته أعلى من ذلك ببركة صحبة خواجه.

قال مرشدي يقول خواجه باقي بالله عن شيخ الهداد إنه يتصف بالأوصاف الملكية بسبب "غاية لطافته" و قال خواجه أبرار عن الإمبراطور شاهجهان إنه في هذا العالم في بادئ الأمر و لكن أحواله تناسب بالعالم الآخر في حقيقة الأمر.

قال مرشدي ذات مرة كنت جالساً عند شيخ الهداد و تسمع أذناى أن قلبه يذكر الله.

قال مرشدي: قال خواجه يقول لقد تلقى شيخ الهداد علم التصوف من خلال "محشى الرسالة القدسية" و لكن لم تكن له معرفة تامة عن هذا العلم في الواقع.

و قال مرشدي ذات مرة : توفي شيخ الهداد سنة ١٠٥١هـ و إنه طلبني قبل وفاته لشهرين و قابلني بغاية من الشفقة و قال إني أعطيك كل ما وصل إليّ من خواجه الأكبر و أنقل إليك كل ما عندى عن طريقة عبد القادر الجيلاني و المشائخ الجشتية و تقبل الطالب (خواجه خرد) منحته و قال مرشدي عند ذلك إني لا أفرق بين فيوض شيخ أحمد سرهندى و شيخ الهداد و قد نيطت بالتفاتهم آمال تتعلق بي و بأحبابي.

و قال: كان خواجه حسام الدين أيضاً يشفق علي الحمد لله ثم الحمدلله حظيت بصحبة مثل هؤلاء الأتقياء و إن رسالة الإجازة التى منحني شيخ الهداد اعتبرها وسيلة النجاة لي و هي كما يلي

"بسم الله الرحمن الرحيم و الصلوة على خير خلقه محمد و آله و أصحابه أمين و أما بعد !

"فليعرف أصحاب الطريقة جميعاً أن كل ما وصل إلى فقير الهداد من قبل خواجه باقي بالله أعطيه خواجه عبيد الله (خواجه خرد) و اجعله خليفة لي و آذن له أن يجيز كل من يأتي إليه للمبايعة أو تلقى الطريقة بعدى بتقبل طلبه و يمنحه السلسلة و أوصيه أن يعامل أبنائي و أقربائي بعد وفاتي معاملة الرفق و المحبة و أدعو الله عزو جل أن يجعله ثابتاً على الأحكام الشرعية و آداب الطريقة و أطوار الحقيقة". (كتب بتاريخ ١٢/ شعبان سنة ١٠٥١هـ)

ذكر الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى كان خواجه يقول إن خواجه كالماء الجارى في التوجه و الحضور لايعرف الركود و هو يمتاز بهذا الوصف.

اشتاق خواجه حسام الدين أحمد مرة إلى حج بيت الله الحرام و أظهر

قصده أمام الشيخ إله داد فرأى الشيخ في المنام هذه الاية.

"و جعلنا من بين أيديهم سداً و من خلفهم سداً" و ذكر هذه الرؤيا عند خواجه حسام الدين أيضاً و ذهب خواجه أبرار بعد ذلك إلى أجره و مكث هناك سنتين و مهما حاول أن ينجح في رحلة الحج و لكنه لم يفز.

و اختلفت أنا (السيد كمال السنبلي) مع مرشدي عدة مرات إلى شيخ الهداد و تشرفت بزيارته و كان يشفق عليّ كثيراً و توفى شيخ الهداد بتاريخ ٢٣ /من شهر شعبان سنة ١٠٥١ هـ و بني قبره على دكة ضريح خواجه الاكبر و قد أخرج مرشدى الشيخ خواجه خرد مادة تاريخ وفاته بـ"الشيخ الفاني". و إنى أيضاً أخرجت نفس المادة في السنبل فكانها من باب التوارد

و أصيبت زوجة شيخ الهداد بشيء من الإختلال الذهني و كانت تزعج الشيخ و هو يصبر على ذلك و توفيت سنة ١٠٦٣هـ و كنت مقيماً في دهلى عند ذلك عند مرشدي

و ذكر خواجه محمد هاشم الكشمي في "زبدة المقامات" عن شيخ الهداد كالآتي.

كان شيخ الهداد من أولئك الرجال الذين حصلوا على إجازة خواجه خاصة و عند ما كان خواجه مقيما في لاهور و لم يسافر إلى ماوراء النهر وصل إليه شيخ الهداد عند ذلك و استفاض بشفقته و عنايته و تلقى منه الطريقة و المراقبة و لكنه لم يرزق بصحبته في رحلة ماوراء النهر بأى عذر و قد أشار خواجه على كل من كان موجوداً من المخلصين في لاهور عند ذلك بأن يستلزموا صحبة خواجه و بعد ذلك سافر خواجه و يتضح ذلك تماماً من الكتاب الذى وجهه خواجه إلى أحد مخلصيه.

"لقد اشتدت داعية السياحة إلى ماوراء النهر هذه الأيام و ألزم صحبة شيخ الهداد في غيبوبتي و ليغتنم كل من يتسير له صحبته و الله ليس في ذلك مسحة من التصنع"

و التمس شيخ الهداد من خواجه أن يكتب له بعض الدقائق و الحقائق فأرسل خواجه إلى شيخ إله داد هذه الرسالة و هو في طريقه إلى ماوراء النهر.

"أخانا شيخ إله داد " أنصر داعيك بالتفاتك و ليس من الحياء في شيء، أن أتحدث عن التصوف و دقائقه خلال هذه الحالة المرتبكة و أكتفى بوصية فقط فلازمها و هي أن لا تكن مثلي جوابا في الصحراء و استقم على هذه النسبة و أحبه و هي أغلى من الكبريت الأحمر"

و لما رجع خواجه من ماوراء النهر بدأ شيخ إله داد يختار صحبة خواجه و فوضت إليه شؤون المسافرين و الزوار و خدمة الضريح و من براعته أنه لم يتغافل عن "الأذكار و الأحوال الباطنة" رغم القيام بهذه المسؤولية الضخمة و حصل على مكانة رفيعة ببركة إلتفات مرشده و يكتب

صاحب "زبدة *المقامات*" في الأخير.

"إن شيخ الهداد من أخيار هذا الزمان و أرباب الفناء و الإنكسار و لا يعنيه اغتياب أحد أو البحث عن معانيه و لا يهتم إلاّ بأمره و يقيم في دائرة ضريح مرشده و عند ما يأتي إلى خواجة حسام الدين أحمد رجل للمبايعة يرسله إلى شيخ إله داد و كانت بين خواجه حسام الدين أحمد و شيخ إله داد علاقة المحبة و الصداقة قوية.

موطن الشيخ إله داد:

ذكر صاحب "تذكرة *الكرام*" أن موطن الشيخ إله داد كان أمروها واعتبره من مشاهير و أكابر أمروها و علاوة على ذلك قال إنه دفن أيضاً هناك و استدل على ذلك بالعبارات الآتية من "*طبقات شاهجهاني*".

"إن الشيخ إله داد الأمروهي كان من كبار أصحاب خواجه".

و من الممكن أن يكون مولده و مسكنه بلدة أمروها في أول الأمر ثم استوطن دلهي و ذكره الشيخ الحكيم السيد عبد الحيء اللكنوي من سكان دلهي كما بدأ تذكرته بهذه الكلمات.

الشيخ العالم الصالح الهداد الحنفي النقشبندي الدهلوي" الخ. و لكن لا يصح البتة أن مدفنه كان أمروها و جاء في "*أسرارية*" و "*نزهة الخواطر*" بالصراحة أنه دفن بجوار خواجه باقي بالله.

و ورد ذكر خمسة علماء بإسم إله داد في كتاب "*تذكرة علماء الهند*" لصاحبه الشيخ رحمن علي رحمه الله و هم كما يلي.

١ ـ الشيخ إله داد جونفوري

٢ ـ ميان إله داد لكنوي

٣ ـ الشيخ إله داد سلطان فوري

٤ ـ الشيخ إله داد النفرخالي

٥ ـ الشيخ إله داد الأمروهي.

و كتب عن الشيخ إله داد الأمروهي "كان صالح الطبيعة حلو اللسان حسن العشيرة و أنه توفي سنة ٩٠٩ هـ في نواحي سيالكوت و دفن في أنحاء أمروها نوّر الله مرقده. (تذكرة علماء الهند)

و لعل ضريح إله داد الذي معروف في أمروها هو في الحقيقة للشيخ إله داد أمروهي الذي ورد ذكره في تذكرة علماء الهند و ظن صاحب تذكرة *الكرام* أنه الشيخ إله داد خليفة حضرة خواجه باقي بالله بسبب التجانس و لذلك قال إن ضريحه يقع في أمروها.

حضرة مجدد الألف الثاني و الشيخ إله داد

قام مجدد الألف الثاني بثلاث رحلات إلى دلهي في حياة مرشده خواجه باقي بالله و كانت ناجحة من حيث البراعات الروحية و أخبره خواجه الاكبر عن بشائر عظيمة و سأله عن أحوال كثيرة و فوّض إليه جميع "مصانع الإصلاح و التربية" (١٢) و وصل إلى مجدد الألف الثاني نعي خواجه و هو في لاهور فجاء إلى دلهي فورما وصل إليه نعيه و قام بتعزية خواجه كلان و خواجه خرد و عزم مجدد الألف الثاني على القيام بخدمة الناس هنا حسب وصية مرشده فعاد ذلك الرونق و البهاء الذى كان في زمن خواجه و تحققت فوائد كثيرة و في هذا الزمن الرائع اثاربعض حساده قضية بشيء من النقص والزيادة و ذكر فيها أن المجدد يدعي أن خواجه استفاد منه فيما بعد و حدثت شكوك و شبهات في قلوب المتوسلين لخواجه من قبل المجدد رحمه الله وعثر المجدد على هذه المؤامرة فحاول أن يقضي عليها بالمواعظ لئلا يتكدر الإخلاص و الوحدة و استخدم التوجه الباطني أيضاً في هذا الصدد و لكن إمتنع بعض متوسلي خواجه عن الاستفادة رغم ذلك و ثارت ضجة عجيبة و اعتذر بعض الإخوان بعد فترة و طلبوا منه العفو فعفا المجدد رحمه الله عنهم جميعاً و نشأت المودة فيمابينهم (١٣).

و كان لخواجه ثلاثة خلفاء آخرين سوى مجدد الألف الثاني كما سبق ذكره و جاب منهم الشيخ تاج الدين السنبلي عديداً من المدن و القرى في الهند ثم وصل إلى البلدان الإسلامية و إنتهى أخيراً إلى الحجاز و توفي في مكة المكرمة و دفن هناك بقيت العلاقة بين الشيخ تاج الدين السنبلي و المجدد طيبة إلى النهاية و كما يفهم ذلك من دراسة رسائل المجدد رحمه الله و لعله لم يتورط في تلك القضية التي واجهها المجدد في دلهي و تحسنت العلاقة بين المجدد و خواجه حسام الدين أحمد و إنه أعطى أبناءه أيضاً في تربية المجدد.

أمّا الشيخ إله داد فكان خليفة لخواجه في دلهي و كان مسؤولا تماماً عن إصلاح الاحوال الخلقية و الدينية لأبناء المرشد و الإخوان في دلهي بسبب إقامته في زاوية خواجه و يبدو أنه لم تكن فيه عاطفة إتباع السنة و المحافظة على الطريقة قوية مثلما كان المجدد (رح) يتحلى بها و كان تعقد في زاوية خواجه إحتفالات كانت ضارة و خطيرة من حيث المغبة عند رجل كامل من الطريقة الفاروقية و إن لم تخالف الدين و الطبيعة الدينية في بادئ الأمر و كان المجدد رحمه الله يختار اسلوباً قاسياً في رسائله التي ينتقد بها أمثال الشيخ إله داد الذي عرف لصلاحه و تقواه ليكون الدين باقياً على صورته الحقيقة و لا يطرأ أي تغير في الطريقة النقشبندية بسبب تغافل.

و ليس معنى ذلك أن المجدد رحمه الله لم يكن يكرمه بل كان يكرم جميع الاخوان و يذكر خلفاء خواجه المخصوصين بغاية من المحبة و الشفقة

فإنه يقول في كتاب "مبدأ و معاد":

" كنا أربعة رجال في خدمة خواجه خرد نمتاز بين سائر الناس" و كان يسأل عن أحوال الشيخ إله داد خاصة في رسائله التي يوجهها إلى الشيخ حسام الدين فقد جاء في رسالة رقمها ٢٠٧ المجلد الأول.

"مضت مدة طويلة لم تصلني أخبارك و أخبار أبناء المخدوم ميان جمال الدين و لا أخبار خدام العتبة و لا سيّما الشيخ إله داد و ميان شيخ الهدية و ليس ذلك إلاّ أنكم أنسيتمونا".

و لكن إذا بلغه شئ يشبه "الإحداث في الدين" فارَ دمُه الفاروقي حماسا رغم هذه المودة و العلاقة الوثيقة و من القضايا التي كان المجدد رحمه الله يختلف فيها عن موقف أرباب زاوية خواجه و لا سيّما الشيخ إله داد قضية "الميلاد" و من الظاهر أنه لم تكن إحتفالات الميلاد مطلقة من القيود الشرعية و شروطها بل من المتاكد أنه تراعي فيها أن تخلو من الأشعار الرديئة و الروايات الكاذبة و من الأغلب أن القائمين بها كانوا أيضاً متمسكين بالشريعة الإسلامية ذاكرين لله و الحاضرون أيضاً يكونون متحلين بأعلى مراتب من التقوىٰ و ثبت ذلك من التاريخ.

و لو أمعنا النظر في الرسائل وصلنا إلى نتيجة أن "القيام" لم يكن بمثابة " الشرط" أو " الركن" آنذاك مثل هذه الأيام و لكن لم تتحملها منزلة المجدد الرفيعة و لم يكن يرى هذه الإحتفالات مخالفة للشريعة فحسب بل كان يراها مخالفة للطريقة أيضاً و سلطت الاضواء في رسالة رقمها ٢٧٣ حول قضية الميلاد و كتب فيها أن هذا الفقير يمنع عنه بمثل هذه الشدة لأنها تخالف الطريقة النقشبندية و إن مخالفة الطريقة تضر كل من يسلك هذه الطريقة سواء كانت المخالفة في صورة السماع أو الرقص أو حفلة الميلاد أو الإنشاد و يكتب في موضع من هذه الرسالة "إن فيروز آباد (موضع في دلهي تقع فيه زاوية خواجه) ماوى أمثالنا من الفقراء و إن كل عمل يتعلق بهذه المنطقة يكون كنموذج لسائر المسترشدين و نحن نضطرب عند ما نسمع أن حدث شئ هناك يخالف الدين و الشريعة و الطريقة النقشبندية أيضاً .

و إن أبناء المخدوم مسؤولون على المحافظة على منهج أبيهم و طريقته و لابدّ لهم أن يراعوا هذا الأمر و يكتب في نهاية هذه الرسالة بأسلوب شديد "و هب لو كان خواجة حياً الآن و انعقد هذا الإحتفال أمامه بنفس هذه الصورة هل يرضى به ؟ و إني أتاكد أنه لا يراه جائزاً بل يرفضه و كان من مسؤوليتي أن أنبهكم إلى خطورة هذه القضية و لكم الخيار إما اقبلوها أو ارفضوها و ما مجال للمناظرة هناك و لو بقى أبناء المخدوم و منسوبوه على هذه الطريقة نضطر إلى الحرمان من لقاءهم كارهين".

و طرح عليه خواجه حسام الدين أحمد بعض الأسئلة عن قضية الميلاد

فرد عليه قائلاً:

"لن يمتنع ذوو الأهــواء عـن طريقتهـم ما لم يقفـل باب الميـلاد تماماً ولو إخترنا اللين في هذا الوقت لينتهي هذه القضية إلى الكثرة. (مكتوب ٧٢ المجلد الثالث)

و أراد الشيخ إله داد أن يصفي قضيته بعد هــذه الشكاوى للمجـددرحمه الله و جعل خواجه حسام الدين أحمد و سيطاً فقد جاء في الرسالة الرقم ٢٢ المجلد الأول " إنك كتبت عن الشيخ إله داد خاصة و لا يرى هذا الفقير في ذلك أي حرج و لكن لا بدّ أن يند م الشيـخ علـي تغيير طريقتـه و الندامـة فـي الحقيقة عبارة عن طلب العفو و التوصيـة التي طلبها فرع من هذه الندامــة و أما معاملته معي فهو مسؤول عنه و ينبغي له أن يتصور سرهند بمثابة بيته و ليست علاقة المحبة و المودة ضعيفة بحيث تنقطع بمثل هذه الأمور. و اكتفي بذلك ..... و السلام.

يضيف في نفس الرسالة العبارات الاتية:

" ألقى في روعي بعد هذه السطور أن أبين هذا الأمر في صورة واضحة لانه يبقى الإبهام في صورة الإجمال و لايتضح المقصود و العفو عند ما يكره الوضع الراهن و لا يمحيه و إلا فلا مجال للعفو.

و إنك كتبت أن المرشد فوض إلى الشيخ إله داد شؤون الطالبين عند جماعة و هذا يتطلب إلى شرح تعالوا أوضحــه إن كان التفويض يهدف إلى خدمة الفقراء و الزوار و تعهد حاجاتهم فهذا صحيح و لكن إذا كان ذلك لأجل تربيتهم و يتمكن على مرتبـة المشيخة فهذا غير صائب عند ما قمت بزيارة المرشد مرة نهائية قال لي ما ذا ترى لو يرشد الشيخ إلـه داد بعض الطالبين من قبلي و يخبرني عن أحوالهم لأني لا أستطيع أن أطلب جميع الطالبين عندي و أرشدهم و أتعرف على أخبارهم و أحوالهم فتوقفت أولا في هذا الأمر ولكن أيدت هذا الاقتراح فيما بعد لأنه كان حاجة ماسة و من الواضح أنه يساوي السفارة و لا سيّما إذا كان يبني على الحاجة و الحاجة تتوقف على قدرها و كانت تلك السفارة مختصة بحياة الشيخ و لايجوز ذلك بعد وفاته".

و قد بذل مجدد الألف الثاني أقصى جهوده في سبيل الدين و الحفاظ على الطريقة النقشبندية و أثمرت هذه الجهود ثماراً طيبة و إن الطريقة النقشبنديـة تهتم بالمحافظـة على السنـة خاصــة و لا أدري لما ذا لاينظر أولئك الذين ينتمون إلى مجدد الألف الثاني في رسائله و مهما يرتكب عامة الناس المحدثات من الأمور و لكن العجب أن يرتكبها أولئك الذين توجد عنـدهم إرشادات المجـدد في صـورة الرسائل و الذين ينتمون إلى طريقته و أن يشتغلوا بالأمور التي يرفع من شأن المحدثات و لا يقوموا بواجبات الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و إشاعة أحكام الدين و التعاليم

المحمدية صلى الله عليه وسلم.

و الله أدعو أن يرزق المسلمين ليعيشوا وفق تعاليم الكتاب و السنة ويتبعوا رجال الدين إ نتهى.

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين و صلى الله على خير خلقه سيدنا و مولانا محمد سيد المرسلين و على آله و أصحابه و اتباعه إلى يوم الدين.

تعريب : محمد أمين الندوى

الهوامش :

١ ـ و لعله سها ناقل الملفوظات أو صاحب الملفوظات نفسه في ضبط ألفاظ هذه الآية و إن ألفاظ الآية في سورة الأنفال و "التغابن" هكذا إنما أموالكم وأولادكم فتنة و هناك اية أخرى في سورة التغابن هكذا " إن من أزواجكم و أولادكم عدوا لكم (الادارة)

٢ ـ الشيخ العارف الكبير الله بخش الشطاري الكره مكتيسرى GARH MUKTESARI أحد المشائخ المشهورين كان من نسل عبد الرحمن بن أبي بكر. و إن جده موسى بن عمران جاء من سبتيان" إلى الهند و أقام في " كره مكتيسر و إستوطن "قوام الدين عم موسى بن عمران رهتك" و ولد الشيخ الله بخش الشطاري في كره مكتيسر و نشأ و ترعرع هناك و تلقى الطريقة من الشيخ مبارك بن عبد المقتدر الذي كان خليفة للسيد عنى قوام شطارى بعد ما تلقى العلوم من أساتذة عصره و إنه كتب " مونس الذكران" بإذن مرشده و فيه بيان فضائل الذكر و تاثيراته و ذكره محمدبن فضل الله المحبي في "خلاصة الأثر" و توفى فى ٨/ رمضان المبارك سنة ١٠٠٢ هـ و يخرج تاريخ وفاته من أعداد سورة الإخلاص" و إن الشيخ تاج الدين السنبهلي أول خليفة له في سلسلة العشقية الشطارية ثم حصل على الخلافة من خواجه باقي بالله الدهلوي في السلسلة النقشبندية و يقع ضريحه في كره مكتيسر بمديرية ميرت.

٣ ـ يوجد هذا العدد الخاص في صورة كتاب في مكتبة " الفرقان"

٤ ـ عرف فيما بعد أن هذه السنة للوفاة ليست بصحيحة إما أنها من خطأ الكتابة مثلما توجد أخطا كثيرة في النص و الترجمة لهذه المجموعة من الرسائل و الترجمة على أساس هذه الأخطا و إما لم يجد الشاه التاريخ الصحيح للوفاة.

٥ ـ لقد ألف الحكيم السيد عبد الحي" اللكنوى كتاباً مبسوطاً مفصلاً في مجلدات يشتمل على تذكرة أكابر و أعيان الهند في اللغة العربية بإسم "نزهة الخواطر" و هو يحتوى على تذكرة علماء و مشائخ لكل عصر من أماكن عديدة و لعله طبعت مجلدتان أو ثلاث مجلدات لهذا الكتاب حتى الآن و لم تطبع المجلدات الباقية التي تشتمل على تذكرة الاف من العلماء و المشائخ و سيعرف المؤرخون تلك البراعة التى كان السيد الحكيم المرحوم يضطلع بها في مجال التاريخ و الجغرافيا و السيرة و علم الأنساب و الرجال عند ما يتم طبع جميع المجلدات و الله أدعو أن يتم طبعها سريعاً و أشكر السيد أبا الحسن الندوى حيث منحنى هذه الشذرات نقلا من نسخ أبيه الخطية

و لكن من بواعث الفرح و السرور أن دائرة المعارف بحيدر أباد قامت بطباعة جميع مجلداتها

٦ - عرف فيما بعد أنه لم يلد في سنبهل كما يدل على ذلك رسالة تاج العارفين بل كان من سكان ساران من منطقة ولاية بيهار قرب جون فور و من الممكن أنه ولد هناك ثم إستوطن في سنبهل (تصميم احمد الفريدي)

٧ - و فيما أرى أنه وقع تصحيف هنا من قبل الناقل و يمكن أنه جعل "الساب" الجبال و إلا ليست هناك أي علاقة للسبنهل بالجبال.

٨ - كان السيد محمود بن شرف الدانشمندي الحسيني من سكان أمروها و كان مريد الشيخ تاج الدين السنبهلي و صهره و جامعاً للعلوم و الفنون و إمام عصره و كان يفتي أيضاً مع إرشاد الناس وتوجيههم و كان ابناه الحاج السيد محمد و السيد عصمت الله (كانا سبط تاج العارفين) صاحب التقوى و النسبة و وردت أخبار الأب و أحواله في "أسرارية" تذكرة الكرام و تواريخ واسطية و شجرات حبيات من تاليف فروغ سيتا فوري.

٩ - هناك فرق بين ماذكر السيد كمال الدين السنبهلي و الحكيم من التاريخ و أوثر التاريخ الذي ذكره السيد كمال في ضوء ذوقي الناقص. و لأن السيد كمال من سكان بلده و معاصريه

١٠ - و ورد في كتاب " مزارات أولياء" أنه توفي سنة ١٠١٤هـ و هو خطأ البتة و ما ذهبت إلى ضريح خواجه باقي بالله فتشرفت أيضاً بزيارة قبر خواجه حسام الدين أحمد أيضاً و كتب أيضاً على لوح القبر الحجري تاريخ وفاته سنة ١٠١٤هـ و لعله ماخوذ من هذا الكتاب و العجب أنهم تغافلوا عن تذكرة مثل هؤلاء المشاهير ينبغي أن ينظر "زبدة المقامات" على الأقل إن الشيخ الكشمي يكتب في نهاية تذكرة خواجه حسام الدين احمد أنه بلغ أكثر من ستين سنة من عمره سنة ١٠٤٠هـ فكيف يمكن أن يتوفى سنة ١٠١٤هـ

١١ - و فيما أذكر أنه جاء في رود كوثر من تاليف الشيخ إكرام أن أبا الفضل كان صهراً لخواجه حسام الدين احمد و من الممكن عكسه و الله أعلم بالصواب

١٢ - و من العجب أن صاحب " مزارات أولياء" دهلي لم يذكر الشيخ إله داد ولعله لم يكن يعرف أن رجلا صالحاً بإسم شيخ الهداد دفن في دلهي.

١٣ - لقد ذكرت الأدلة الكتابية و الشفوية على أن خواجه إستفاد من مريده البارع في مجال الفيوض الروحية و الحقيقة أن قلة الفهم و عدم التحقيق أثارت ضجة و شائعة في كل عصر بلا جدوى

مجهودات الشاه ولى اللّه الدهلوى
فى التقريب بين المذاهب الإسلامية

بقلم: البروفسور نثار أحمد الفاروقى
قسم اللغة العربية و آدابها،
بجامعة دلهى

كان الشاه ولى اللّه الدهلوى (١) (١١١٤ ـ ١١٧٦هـ) من الشخصيات الرائدة العملاقة في الهند في القرن الثاني عشر الهجرى . و القرن الثامن عشر الميلادى . فقد كان مُفسراً و مُحدثاً و فقيهاً و مُتكلماً و صوفياً و فيلسوفاً و مُنشئاً و شاعراً في اللغة الفارسية و العربية . و لم يكن أحد من العلماء الهنود أنذاك يتمتع بنظرة عميقة على النظام الإجتماعي لعصره و الأوضاع الإقتصادية و السياسية . و على وهاد التاريخ و نجادها مثلما نتعرّف عليها خلال دراسة فكر الشاه ولى اللّه الدهلوى . فقد كان رجلاً عبقرياً و عرف ببصيرته النفاذة أن حكم المسلمين على الهند الذى يمتدّ على سبعة قرون يكاد أن ينتهى ، و لو لم يستيقظ المسلمون من سُباتهم فى هذه الفترة الحاسمة من التاريخ و لم يتماسكوا فسوف يضطرون إلى حياة لا يحبونها أبداً . و درس الشاه ولى اللّه الدهلوى الأوضاع المتغيرة بنظرة عميقة ، و شرع برنامجه الإصلاحى على مستويات مختلفة و رأى أن التعاليم الإسلامية فى الهند لن تبقى فى صورتها الصحيحة النقيّة مادام لا يستحكم نظام التعليم الدينى فى الهند . و تحقيقاً لهذا الهدف السامى قام بالتدريس لمدة إثنى عشر عاماً ، و خرّج جماعة من تلاميذه النجباء الذين واصلوا بعد وفاته تدريس علوم التفسير و الحديث و الفقه و المنطق و الكلام . كما أدرك الشاه ولى اللّه الدهلوى أن اللغة الفارسية لغة الكتابة و التاليف و اللغة الرسمية فى البلاد ، و لا يعلم اللغة العربية إلاّ طبقة خاصة و أن عامة الناس عالة على هذه الطبقة لمعرفة معانى القرآن الكريم و الحديث الشريف و مفاهيمهما ،

و أن هذه الطبقة ليست بمنجى من عصبياتها و مزاعمها المذهبية . و أن العلاقات العقائدية قد شتت شمل الأمة و مزقت جمعها، و بدل أن توجه الجهود إلى التقريب بين الفرق المختلفة و إيجاد الإنسجام فيما بينها ، تنقسم الفرق القديمة إلى فرق مختلفة حديثة ، فكان من اللازم لردع هذه الفتنة العمياء أن تعمم معرفة القرآن الكريم ، فألف الشاه ولي الله الدهلوي عدة رسائل في أصول تفسير القرآن الكريم و رغم معارضة بعض العلماء له قام بنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية (٢) ثم لم يلبث أن أخذ ينحسر ظل اللغة الفارسية في الهند و أخذت اللغة الأردية مكانها و أدرك إبنه الشاه عبد القادر (١١٦٧ - ١٢٣٠هـ) بهذا الإنقلاب الصامت و قام في عام ١٢٠٥ هـ بنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأردية بأسلوب سلس شيق سهل الفهم و طبع ذلك لأول مرة عام ١٢٥٤هـ باسم "موضح قرآن" (٣)

و يأتي الحديث الشريف في المنزلة الثانية بعد القرآن الكريم لشرح دين الإسلام و بيان أحكامه و تعاليمه السمحة . و كان يرتأي الشاه ولي الله الدهلوي أن كتاب "*الموطأ*" للإمام مالك رحمه الله من أقدم مجموعات الحديث الشريف و أكثرها اعتباراً و أن إقتضابه من إحدى ميزات هذه المجموعة ، فإن كتاب الموطأ يضم بين دفتيه أحاديث تعين على إستنباط الأحكام الشرعية و لذا عمل شرحين لهذا الكتاب الجليل: "*المصفا شرح الموطأ* باللغة الفارسية و "*المسوى*" باللغة العربية ، حتى يستفيد منهما العلماء و عامة الناس جميعاً إستفادة تامة على قدم سواء.

ثم تأتي مرحلة المسائل و الأحكام الفقهية . و هذا هو المنطلق من حيث نجمت خلافات بين مختلف طوائف الأمة ، و قد حاولت كل فرقة أن تقدم بتفسير القرآن الكريم و شرح الحديث الشريف مما يتفق مذهبها و عقيدتها نصح الشاه ولي الله الدهلوي الأمة بأخذ الإعتدال في المسائل المختلف فيها ، و صنف فيه كتابا أسماه "*الإنصاف في سبب الإختلاف*" أن الخلافات حول مسئلة التقليد و عدمه و آراء أئمة الفقه فيها كانت تحتدم في عصره لحد أن العلماء كانوا يدخلون في خلافات مثل رفع اليدين و قراءة الفاتحة خلف الإمام و حلّة الغُراب و غير ذلك و كان تكفير بعضهم لبعض شغلهم الشاغل و في مثل هذا الجوّ المكهرب بالخلافات بدأ الشاه ولي الله الدهلوي تفهيم الدين بأسلوب علمي حكيم يقول:

> "*و من أكبر نعم الله سبحانه و تعالى على هذا العبد الضعيف أنه خلع عليّ الفاتحية و وفقني إلى أن افتتح العصر الأخير فقد سئل مني ما هو أحسن الفقه؟ فجمعته و ألّفت فقه الحديث من جديد*" (٤)

إن نظرة الشاه ولي الله الدهلوي تجاه المذاهب المختلفة في الأمة

كانت تقدم على التفاهم و التسامح و إحترام جميع المذاهب الفقهية و العقائدية ، و لكنّه كان يريد أن يرى الإسلام في صورته النقيّة البيضاء و يستوجب الجهاد في سبيله ، و قد كان ألهم هذا الأسلوب الجديد لخدمة الإسلام في المنام رآه في مكة المكرمة في العاشر من شهر صفر لعام ١١٤٤هـ و ذكر هذه الرؤية في أمكنة عديدة في مؤلفاته يقول:

> كان الحسن و الحسين رضي الله عنهما نزلا في بيتي و بيد الحسن رضي الله تعالى عنه قلم قد انكسر لسانه ، و بسط إليّ يده ليعطيني ، و قال هذا قلم جدّي رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم ، ثم قال : حتى يصلحه الحسين فليس ما أصلحه الحسين كما لم يصلحه ، فاخذ الحسين رضي الله عنه و أصلحه ، ثم ناولنيه فسررت به ، ثم جيء برداء مخطط ، فيه خط أخضر و خط أبيض فوضع بين يديهما فرفعه الحسين رضي الله عنه و قال هذا رداء جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم البسني فوضعته على رأسي تعظيماً و حمدت الله تعالى" (٥)

إن هذه الرؤية تشير إلى أنه يسلك طرقاً جديدة لتبليغ الدين بين المسلمين الهنود و ينفخ روحاً جديدة في الفكر الديني و يقيم حجّية الحديث الشريف و يجاهد بقلمه في سبيل إصلاح تفكير الامة المسلمة.

و لإكتناه فكر الشاه ولي الله الدهلوي يجب علينا أولاً أن نعلم أنه كان يعتبر الدين غاية الحياة ، و أن الدين يمنح الحياة غاية واضحة و أن هذه الغاية لا تحدها الحدود بل إنها غاية عامة شاملة مثل الحياة بالذات و أنه لا يمكن إصلاح المجتمع الإسلامي إلاّ حين يستقيم الفكر الديني لدى المسلمين. و قد شرح أسرار الشريعة في كتابه الشهير "حجة الله البالغة" بحيث أن الإسلام يبدو منهج حياة متماسك و استعرض كل طبقة و جانب من جوانب مجتمع المسلمين ، و قد صدق محمود أحمد البركاتي حين قال:

> "كان فكره موضوعيا ، و كانت مساعيه في تبليغ الدين تقوم على الصدق و الامانة ، و لم يكن يفكر في مسئلة سواء كانت فقهية او عقائدية أو كانت تتعلق بالتفسير او التصوف ، و كان له راى في ذلك من قبل ، بل إنه كان يودّع مؤلفاته حصيلة فكره بفصّها و نصها" (٦)

و مهتدياً بهذا الفكر مضى الشاه ولي الله الدهلوي يبحث عن أسباب الخلافات العقائدية بين مختلف طوائف المسلمين ، و بالرغم من أن أسرته كانت تمثل مدرسة فكر في الفقه و الكلام و التصوف ، لكن العصبية و التميز لم يؤثرا في تحقيقه المسائل ، و وجّه جهوده إلى البحث عن أوجه

الإشتراك بين مختلف المذاهب الفقهية و العقائدية ، و حاول التقليل من فجوة الخلافات بينها ، بدلاً من أن يجعل مناصرة معتقداته نصب عينيه. إن هذا المنهج الفكرى لدى عالم دينى كان غريباً فى المجتمع الإسلامي الهندى حيث كانت جذور الخلافات العقائدية قد تأصلت عبر أكثر من خمسة قرون ، و كان أتباع مذهب واحد لم يكونوا يدرسون كتب المذاهب الأخرى ، و لو درسوها كانت غايتهم الردّ عليها و النيل من شأنهما. أن جهود الشاه ولي الله الدهلوى فى سبيل التقريب بين مختلف المذاهب الإسلامية أسفرت عن نتائج متضادة ، ففى جانب واحد كان المقلدون (الأحناف) يعتبرونه قدوتهم و لكنّهم ينكرون بعض أفكاره أو يحرّفون فيها و على الجانب الآخر يعتبره أهل الحديث إمامهم (٨) و قدوتهم و لكنهم أيضاً لا يوافقون على جميع أفكاره (٧) . يقول مؤرخو حياته إنه قد نحلت أقوال عليه فى تأييد السلفية و مناصرتها حتى يتبع الذين يحترمون مكانته العلمية هذه الأفكار بإعتبارهم إياها أفكار الشاه ولي الله الدهلوى. (٩)

و فى القرن الثامن عشر الميلادى كانت جماعة الصوفية تتمتع بأثر و نفوذ بالغين فى المجتمع الهندى ، و حق أنه كان فيهم من باعوا أخراهم بدنياهم و كانوا غافلين عن علم الدين و صبغوا طقوساً مختلفة بصبغة الدين و لكن إلى جانبهم كان هناك بعض كبار الصوفية و كانت توجد فى أسرتهم تقاليد عريقة للسلوك و التصوف أو كانوا قدوة مذهب روحاني ، و هذه الطبقة أيضاً كانت تختلف فيما بينها فى بعض المسائل مثلاً: هل شرعت البيعة للخلافة فحسب أم تجوز لأغراض أخرى أيضاً ؟ أو ما هى العلاقة بين الشريعة و الطريقة الروحية، أو يجوز الذكر جهراً أم لا ؟ و كذلك كانوا يختلفون فى بعض المسائل الفرعية كسماع الموتى و " تصور الشيخ " و التوسل و ما إليها ، و لكن أهم هذه الخلافات كانت حولَ مسئلة " الوجود " . فقد كانت طبقة تعتقد "بوحدة الوجود" ، و تقول أن لا وجود إلاّ الله و لا موثر فى الوجود إلاّ الله ، ذات الله سبحانه و تعالى واجب الوجود الذى خلق الخلق فى مرتبة الوهم و ذلك يعني أن الوجود خداع البصر لا أصل له كالثلج الذى يذوب و يعود ماءً - و كان الشيخ محى الدين ابن العربى (٥٦٠ - ٦٣٨) من أكبر مناصرى هذه الفكرة ، و فى الهند ألّف الشيخ محب الله الإله آبادى (٩٩٦ - ١٠٥٨هـ) كتباً قيمة حول هذه المسئلة الدقيقة. (١٠)

أما الطبقة الثانية فكانت تعتقد "بوحدة الشهود" و كان الشيخ أحمد السهرندى (١١) مجدد الألف الثانى (٩٧١ - ١٠٣٤هـ) إمام هذه النظرية فيما يقال ، مع أننا نعثر على دلائل الإختلاف عن نظرية "وحدة الوجود" فى ملفوظات علاء الدولة السمنانى (١٢) (٦٥٩ - ٧٣٧هـ) و السيد أشرف جهانگير السمنانى (١٣) (٦٨٨ - ٨٠٨هـ) و السيد محمد الحسينى الملقّب بگيسو دراز (١٤) (٧٢١ - ٨٢٥هـ) أيضاً. على كل أن اختلاف الصوفية فى هذه المسئلة قد باعد بين

السلاسل الصوفية. و بذل الشاه ولي الله الدهلوي جهوداً مخلصة لتقليل الفجوة بينها ، و إن رسالته الطويلة إلى أفندي إسمعيل بن عبد الله الرومي ثم المدني و التي طبعت بإسم "*الرسالة المدنية* تلقي الضوء على هذا الموضوع، فقد استعرض فيها نظرتي الوجود استعراضاً علمياً و بذل سعياً مشكوراً تجاه التطبيق بينهما تطبيقاً معنوياً . قال الشاه ولي الله الدهلوي: " إن وحدة الشهود تعني أن يتبوءا السالك مقاماً يلتقي فيه طرفاً أحكام الجمع و التفريق ، و ذلك يعني أن السالك قد اهتدى إلى أن يدرك الحقيقة أن الوحدة التي تتراءى لنا في الأشياء إنما هي من وجه واحد ، و أن الكثرة التي ترى مغايرة لها إنما هي الأخرى أيضاً من وجه واحد . أن منزلة المعرفة و السلوك هذه أرفع نسبياً من مقام "وحدة الوجود" ان محاولة التطبيق هذه لم تعجب القائلين بوحدة الوجود أو بوحدة الشهود. فقد طلب الميرزا مظهر جان جانان (١٥) (١١١١- ١١٩٥هـ) إلى خليفته الشيخ غلام يحيى البيهاري (١٦) بالردّ على ذلك ، فكتب رسالته "*كلمات الحق* (١١٨٤هـ) و دبج الميرزا جان جانان تقريظاً على هذه الرسالة. ثم كتب الشيخ قمر الدين الأورنك آبادي بأمره رسالة أخرى بإسم "*مظهر النور*" ، شرحه إبنه السيد نور الهدى بإسم " *المظاهر*".

و توفي الشاه ولي الله الدهلوي في عام ١١٧٦هـ قبل أن تظهر رسالة "*كلمات الحق*" فردّ عليها أبناءه، و كتب إبنه الشاه رفيع الدين المحدث الدهلوي (١٧) رسالة " *دمغ الباطل*" و قد كانت نية الشاه ولي الله الدهلوي صالحة في محاولة التطبيق هذه ، و لم يكن يريد أن يفتح باب بحث جديد، فكان يرى أن جميع السلاسل الصوفية تنتهي إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن واسطة الحسن البصري (ت ١١٠هـ) و لكن لا يثبت اللقاء بينهما الذي يشترط للإستفادة . و أما الأحاديث التي رواها الحسن البصري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما و التي وردت في كتب الأحاديث مثل صحيح الإمام البخاري و جامع الترمذي و سنن أبي داؤد ليست متصلة و إنما توجد فيها واسطة قيس بن عباد. و ردّ عليه أحد كبار الصوفية من السلسلة الجشتية النظامية الشاه فخر الدين النظامي محب النبي الدهلوي (١٨) (١١٢٦- ١١٩٩هـ) في كتابه " فخر الحسن" و أثبت أن الحسن البصري كان إكتسب الفيض الروحي من علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

إن الشيعة الإمامية يشكلون جزءاً كبيراً للأمة الإسلامية و اختلف فيهم علماء أهل السنة في كل عصر، فهناك طبقة الغلاة الذين يكفرون الشيعة الإمامية بغير كلفة ، و لكن الطبقة الأخرى اختارت طريقاً وسطاً و لم تذهب مذهب تكفيرهم ، و هم يستندون إلى أن من يقول "لا إله إلاّ الله محمد رسول الله" و يؤمن بالنبي و الآخرة و يعتقد أن القرآن الكريم منزل من الله تعالى لا يمكن تكفيره . إن وجهة نظر الشاه ولي الله الدهلوي في هذه القضية أيضاً

كانت واقعية و معتدلة . و قد ذهب في ذلك لحد أنه قال : لو خيرت بين التقليد و عدمه في المسائل الفقهية لاخترت عدم التقليد و لكني " أمرت" أن أعيش مقلداً ، و كذلك كنت أجنح إلى تفضيل علي على الشيخين و لكني " أمرت" بتفضيل الشيخين. و لكن موقفه الوسط هذا لم يعجب أهل السنة فقد ورد في ملفوظات الشاه عبد العزيز الدهلوي (١٩) انه جاء إليه رجل من افغانستان و سأله عن الشيعة الإمامية ، فذكر له الشاه ولي الله" الدهلوي أقوال المتقدمين من علماء الأمة ثم ذكر له رأيه فيهم . و لكنّه لم يطمئن إلى جوابه و ذهب. ثم حضر الرجل في خدمته مرة أخرى و أعاد عليه سؤاله الأول فردّ عليه الشاه ولي الله الدهلوي بمثل ما ردّ عليه في المرة الأولى ، فغضب الرجل و قام من المجلس و هو يقول: إن هذا الرجل أيضاً يبدو من الشيعة . " هذا كان حال أهل السنة أما الشيعة أيضاً فلم يكونوا راضين به . و يرجع ذلك في المقام الأول إلى الصراع السياسي الذي شهده العصر الذي عاش فيه الشاه ولي الله الدهلوي حيث كان الناس انقسموا بين الطبقة الإيرانية و الطبقة التورانية ، و لم تكن أي شعبة من شعب الحياة حيث لم يدخل إليها هذا الصراع و الخلاف. و السبب الثاني هو أن مؤلفاته لم تعم بين أهل السنة بالذات فأنّى لها أن تلقى رواجاً بين الشيعة ، و من سقطت إلى يديه مؤلفاته لم يكن كثيرون منهم على إستعداد ليدركوا كُنه فكره . و ذلك لأنه يتكلم في مصطلحات خاصة ، و كتاباته تصبغت بصبغة الكشف و الوجدان إلى جانب الفلسفة و الكلام.

و السبب الثالث هو أن بعض مؤلفات إبنه الشاه عبد العزيز الدهلوي (٢٠) (١١٥٩– ١٢٣٩هـ) و حفيده الشاه محمد اسمعيل الدهلوي (١١٩٣ –١٢٤٦هـ) قد أوقعت الشيعة في سوء التفاهم تجاه الشاه ولي الله الدهلوي. و ظهر ذلك بحيث أنه فيما تصدى الميرزا علي لطف في عام ١٨٠١م لكتابة تراجم شعراء اللغة الأردية فظن شخصاً إسمه الشاه ولي الله اشتياق الدهلوي، من أحفاد الشيخ أحمد السهرندي ، الشاه ولي الله المحدث الدهلوي و مضى يقول "له كتب عديدة لقيت الرواج و القبول ، منها كتابان أحدهما "*قرة العينين في إبطال شهادة الحسين*" و الثاني "*جنة العالية في مناقب معاوية* . مع أن الشخص الذي يتحدث عنه المؤلف يختلف عن شخصية الشاه ولي الله الدهلوي اختلافا تاماً . كما أنه لم يكن شاعراً باللغة الأردية. و قد أخطأ الميرزا علي لطف حين جعل كتابه "*قرة العينين في تفضيل الشيخين*" محرفاً "*قرة العينين في إبطال شهادة الحسين*" و لكنه لم يؤلف رسالة في مناقب معاوية قط و كذلك لا يوجد أي كتاب في هذا الموضوع للشاه ولي الله اشتياق الدهلوي.

إن الجمع بين الفرق المختلفة للمسلمين على الأمور المشتركة و الفروع بطريق وسط عن طريق التطبيق في المسائل الجزئية ليس هدفاً عسير المنال ، مع أننا نعلم أن رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم حين أراد أن يدعو اليهود

و النصارى إلى المفاهمة كتب إليهم غير مرة: "تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم" و لكن الغافلين عن حكمة الدين دوما يريدون أن لا تجتمع كلمة المسلمين حتى في المسائل التي يمكن الإتفاق فيها و لو أدى ذلك إلى تشتيت شمل المسلمين و تمزيق جمعهم. قد كنت قبل مدة مديدة قرأت كتاباً إسمه "*أصل الشيعة و أصولها*" لمؤلفه العلامة محمد حسين آل كاشف الغطاء، و أوضح فيه المؤلف عقائده بأسلوب رزين هادى مدعم بالدلائل و قد أعجبني معظم أجزاء الكتاب، و وقر في قلبي أنه بغض النظر عن بعض المعتقدات الأساسية لا توجد فجوة عميقة بين أهل السنة و الشيعة لا يمكن تضييقها، أو لا يمكن مع بقائها أن يتحقق التفاهم و المصالحة بين هذين الجزئين لجسد الأمة الإسلامية ، و أردت أن أترجم الكتاب إلى اللغة الأردية تعميماً للفائدة ، و لكني علمت أنه قد ترجم و طبع في بلدة لكناؤ، و أخذت أبحث عن الترجمة بحثاً شديداً حتى عثرت عليها و لكني لما قمت بالمقارنة بين أصله العربي و ترجمته الأردية فوجدت فيه فارقاً كبيراً ، فمثلاً كلما كتب المؤلف كلمة خير عن الشيخين ، أو أيد عملهما فقد حذف المترجم تلك العبارة بأسرها أو حرّف عن موضعها ، ففي هذا الجو كيف يمكن أن يتكلل أي جهد للتقريب و إيجاد التفاهم بالنجاح؟

كان الشاه ولي الله الدهلوي خبيراً بأسباب انحطاط المسلمين الهنود ، و كان يرى بأم عينيه أن دولة إسلامية عظيمة تأخذ سبيلها إلى الإندثار فلم يكن إلاّ أن يدعو الأمة الإسلامية إلى الوحدة و الوئام فقد أهاب بكل طبقة من طبقات المجتمع و ذكرها بمسئوليتها. فقال مخاطباً للعلماء : "يا من حرموا العقل ، إنكم سميتم أنفسكم علماء ، مع أنكم غارقون في علوم اليونانيين و مباحث التصريف و النحو و المعاني و ظننتموها علماً . إن العلم إنما هو آية محكمة أو سنة ثابتة قائمة ... إني أسئل الذين سلكوا طريقاً وعرا في الدين، و أسئل العباد و الزهاد و الذين اعتزلوا الدنيا و أزروا إلى الزوايا كيف تشعرون حين فرضتم الدين على أنفسكم و تأبى قلوبكم ، إنكم تؤمنون بكل ما خبث و طاب و ترددون على الناس أحاديث موضوعة مزيفة و ضيقتم الخناق على الناس ، مع أنكم خلقتم ميسرين و لم تبعثوا معسرين."

إن دراسة دقيقة محايدة لمؤلفات الشاه ولي الله الدهلوي توصلنا إلى نتيجة لخصها المفتي نسيم أحمد الفريدي رحمه الله بقوله:

> *" قد كان الشاه ولي الله الدهلوي مجدد عصره و حكيم الأمة و مصلحها و إمام كل علم و فن ، و متعاطفاً مع الإنسانية بأسرها و كان إسلامي المذهب ، هندي الموطن ، و قد عم خيره كل صقع و كل قوم من أقوام العالم".*

الهوامش :

(١) أبو الفياض قطب الدين أحمد المعروف بشاه ولي الله بن الشاه عبد الرحيم الدهلوي ولد في الرابع من شوال ١١١٤هـ/ ٢١ فبراير ١٧٠٣م في قرية بهولت (مديرية مظفرنغر ولاية اترابراديش) قرأ الكتب الدراسية على أبيه (المتوفى ١٢ صفر ١١٣١هـ /٤ يناير ١٧١٩م) و صار مدرساً في المدرسة الرحيمية و هو ابن ١٥ سنة. سافر إلى الحجاز في ١١٤٣هـ و وفق إلى سماع عدد كبير من مشائخ الحرمين الشريفين خصوصاً من الشيخ أبو طاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدني و الشيخ وفد الله بن سليمان المغربي و الشيخ تاج الدين الحنفي و عاد إلى الهند في عام ١١٤٥هـ / ١٧٣٢م.

توفي الشيخ رحمه الله في ٢٩ محرم الحرام ١١٧٦هـ / ٢٠ أغسطس ١٧٦٢م و دفن في مقابر مهنديان (وراء مارستان بنت حاليا) من أخلافه الشاه محمد و الشاه عبد العزيز، (ف ١٢٣٩هـ/١٨٢٤م) و الشاه رفيع الدين (ف ١٢٣٣هـ/ ١٨١٧م) ، و الشاه عبد القادر (ف ١٢٣٠هـ / ١٨١٥م) و الشاه عبد الغني (ف ١٢٣٠هـ / ١٨١٤م) . أناف عدد مؤلفاته عن ٦٠ كتابا في اللغة العربية و الفارسية و قد ترجم بعضها باللغة الاردية أيضاً و أشهرها

(١) فتح الرحمن ترجمة معاني القران بالفارسية (٢) الفوز الكبير (٣) المسوى شرح كتاب الموطا بالعربية (٤) مصفى شرح الموطا بالفارسية (٥) تراجم البخاري (٦) الإنتباه في سلاسل أولياء الله (٧) حجة الله البالغة (٨) التفهيمات الإلهية (٩) الإنصاف في بيان سبب الإختلاف (١٠) عقد الجيد في أحكام الإجتهاد و التقليد (١١) فيوض الحرمين (١٢) القول الجميل (١٣) الرسالة المدنية (١٤) القول الجلي في ذكر اثار الولي و غير ذلك.

(٢) بدأ كتابة هذه الترجمة في ١١٥٠هـ/١٧٣٧م و ألقى دروساً منها في ١١٥٦هـ على تلاميذه (أنظر مقدمة فتح الرحمان)

(٣) الشاه عبد القادر بن الشاه ولي الله الدهلوي ولد في ١١٦٧هـ/ ٥٤-١٧٥٣م و استكمل دراساته على الشاه محمد عاشق البولتي (ف١١٨٧هـ) استمر طول حياته ساكنا في غرفة صغيرة في " مسجد اكبرابادي" (و قد هدمه الافرنج في ١٨٥٧م) . بدأ ترجمة معاني القران الكريم باللغة الاردوية في ١٢٠٥هـ /٩١-١٧٩٠م بأسلوب رزين و إسمه التاريخي " موضح قرآن (١٢٠٥هـ) قد طبعت هذه الترجمة لأول مرة في ١٢٥٤هـ /١٨٣٨م في مطبع السيد عبد الله بن بهادر علي في هوغلي (بنغال). توفي رحمه الله في عام ١٢٣٠هـ /١٨١٤م و دفن بجوار أبيه. من أرشد تلاميذه مولانا فضل إمام الخير أبادي و المفتي صدر الدين أزرده، و الشاه محمد اسماعيل الدهلوي و الشاه محمد إسحق المحدث و الشاه محمد يعقوب الدهلوي . و كانت من أولاده بنتا إسمها زينب و هي زوجة مصطفى بن الشاه رفيع الدين و ولدت لها بنت إسمها كلثوم و هي زوجة الشاه محمد اسماعيل الدهلوي و أم الشاه محمد عمر. (أنظر:

محمود أحمد بركاتي: الشاه ولي الله الدهلوي و أسرته (بالأردوية) لاهور ١٩٧٦م.

(٤) حجة الله البالغة.

(٥) نفس المصدر و رسالة فيوض الحرمين (المشاهدة السادسة)

(٦) محمود احمد بركاتي: الشاه ولي الله و أسرته (لاهور ١٩٧٦م)

(٧) على سبيل المثال طبقة العلماء يقال في الإصطلاح المحلي "الديوبنديون" تعتقد الشاه ولي الله رائدها و تنسب إليه العقائد المحرفة (أنظر للتفصيل ابو الحسن زيد الفاروقي مقدمة القول الجلي في ذكر آثار الولي (دهلي ١٩٨٦م)

(٨) السلفيون (أهل الحديث) يتخذون الإمام إبن تيمية و محمد بن عبدالوهاب النجدي مثلا و يحذون حذوهما و يزعمون أن الشاه ولي الله ايضاً يتبعهما في العقائد و لكن عقائد الشاه تختلف منهما في اكثر الاعمال مثلاً أن الشاه كان يقيم حفلة "عرس" أبيه كل عام، و مقابر أسرته كلها مجصصة مسنمة حتى اليوم و يعتقد الشاه أن المذاهب الفقهية كلها صحيحة و يعتقد أن للنجوم تأثير في أحوالنا و لكن حفيده الشاه محمد اسمعيل يقول في كتابه الشهير " تقوية الإيمان أن من يعتقد في تأثير النجوم فهو مشرك . فيا للعجب!

(٩) قد نسب كتاب "تحفة الموحدين" من الشاه ولي الله، و يحتوي هذا الكتاب معظم عقائد محمد بن عبد الوهاب النجدي و قيل في هذا الكتاب

" كل من ذهب إلى بلدة أجمير أو على قبر سيد سالار مسعود أو ما ساهاها لأجل حاجة يطلبها فإنه آثم إثماً اكبر من القتل و الزنا أليس مثله الامثل ما كان يعبد المصنوعات أو مثل من كان يدعو اللات و العزى إلا أنا لا نصرح بالتكفير بعدم النص من الشارع في هذا الأمر المخصوص. " هذا قول منحول (أنظر للتفصيل - مقدمة القول الجلي لأبي الحسن زيد الفاروقي)

(١٠) الشيخ محب الله الإله آبادي من كبار مشائخ السلسلة الجشتية الصابرية كان عالماً صوفياً ، فيلسوفاً ، متكلماً أخذ الطريقة الروحية من الشيخ أبي سعيد الكنكوهي. له تصانيف كثيرة منها شروح على تصانيف الشيخ محي الدين ابن عربي (أنظر للتفصيل: مراة الأسرار لعبد الرحمن الجشتي و إقتباس الأنوار لمحمد أكرم البراسوي و ذكر المعارف للسيد شوكت حسين (إله آباد ١٣٤٢هـ)

(١١) الشيخ أحمد السهرندي الملقب بمجدد الألف الثاني كان عالماً جليل القدر و صوفياً كبيراً عاش في زمن الإمبراطور المغولي جهانغير و أخذ الطريقة الروحية النقشبندية من الشيخ باقي بالله الدهلوي (ف ١٠١٢هـ) له مصنفات كثيرة و ضريحه في بلدة سهرند (بنجاب) (أنظر للتفصيل: محمد هاشم الكشمي: زبدة المقامات (مطبع محمود لكنو ١٣٠٢هـ ، و بدر الدين السهرندي: حضرات القدس لاهور ١٩٧١م)

(١٢) علاء الدولة السمناني ركن الدين أبو المكارم أحمد بن شرف الدين محمد بن احمد البيابانكي ولد في ذي الحجة ٦٥٩/ نوفمبر ١٢٦١م في سمنان (خراسان) أخذ الطريقة الروحية عن الشيخ نور الدين عبد الرحمن الكسرتي في السلسلة الكبروية. توفي

رحمه الله في ٢٢ من شهر رجب ٧٣٦/٦مارس ١٣٣٦م في سمنان. كان من أشد ناقدي ابن عربي في نظرية "وحدة الوجود" و كان يقول أن ابن عربي يزعم " الوجود" و الخالق واحداً. و هكذا أخذ فعلاً للخالق كالمعبود مع أن "الوجود" صفة من صفات الله و ليس جوهراً فكان يعتقد أن المنتهى للسالك " العبودية " لا " التوحيد" (أنظر للتفصيل دائرة المعارف الإسلامية)

(١٣) السيد أشرف جهانغير السمناني بن السيد محمد ابراهيم ولد في ٦٨٨/ ١٢٨٩م في سمنان أخذ الطريقة الكبروية عن السيد علاء الدولة السمناني كان كثير السفر و الترحال استقر أخيراً في قرية كشوشة (مديرية فيض آباد) و لقى حتفه هناك في ٢٧ محرم ٨٠٨هـ/ ٦ يوليو ١٤٠٥م. من مصنفاته بشارة المريدين و المكتوبات الأشرفية (كلاهما بالفارسية) (أنظر للتفصيل نظام اليمنى لطائف أشرفي و عبد الرحمن الجشتي: مرآة الأسرار و الشيخ عبد الحق أخبار الأخيار و عبد الحي نزهة الخواطر)

(١٤) السيد محمد الحسيني الملقب بكيسودراز بن السيد محمد يوسف قتال الحسيني ولد في ٧٢٩هـ و هاجر مع أبويه إلى دولت أباد ثم عاد إلى دهلي بعد سنوات و أخذ الطريقة الجشتية من الشيخ نصير الدين محمود أودهي الملقب بجراغ دلهي (ف ٧٥٧هـ) ثم خرج من دلهي حيطة للوقاية من إغارة تيمور على دلهي و استقر في مدينة كلبركة (كرناتكا) و انتقل إلى جوار رحمة الله في ١٥ ذي القعدة ٨٢٥ و دفن هناك . له مصنفات كثيرة يتجاوز عددها من مأة كتب بالفارسية و العربية (أنظر للتفصيل محمد أكبر الحسيني : جوامع الكلم و محمد علي ساماني. سير محمدي)

(١٥) ميرزا مظهر جان جانان ولد بين ١١١١- ١١١٢هـ و هو من كبار مشائخ السلسلة النقشبندية. كان عالماً و صوفياً و شاعراً فحلاً. قتل قبلة في محرم ١١٩٥هـ و لم يعقب خلفه الشاه غلام علي النقشبندي الذي هو مرشد الشيخ المعروف محمد خالد الكردي العراقي . و للميرزا خلفاء كثيرون منهم الشاه عبد الباري الأمروهي (ف ١٢٣٦هـ) أنظر لترجمة الميرزا " مقامات مظهري للشاه غلام علي . تحقيق و تحشية محمد إقبال مجددي . لاهور ١٩٨٣م و معمولات مظهرية لنعيم الله البهرائشي. و مكتوبات ميرزا مظهر جان جانان تحقيق عبد الرزاق قريشي).

(١٦) للشيخ غلام يحيى راجع إلى " مقامات مظهري" ٤٢٦ - ٤١٩

(١٧) الشاه رفيع الدين الدهلوي ولد في ١١٦٣ هـ قرأ على أخيه الأكبر الشاه عبد العزيز و خاله الشيخ محمد عاشق البولتي. كان عالماً بالمعقول و المنقول على السواء توفى رحمه الله في ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م ، له مصنفات عديدة منها ترجمة معاني القران الكريم(١٢٠٥هـ) . تكميل الأذهان ، رسالة في تحقيق الألوان ، حاشية على مير زاهد ، دمغ الباطل و غيره (محمود أحمد بركاتي: الشاه ولي الله و أسرته لاهور ١٩٧٦م)

(١٨) الشاه فخر الدين الجشتي النظامي بن الشاه نظام الدين الأورنغ أبادي من مشائخ السلسلة الجشتية ولد في مدينة أورنغ أباد في عام ١١٢٦هـ/ ١٧١٤م و درس على العلماء البارزين في عصره ثم انتقل إلى دلهي في عام ١١٦٥هـ و استقر في مدرسة

غازي الدين حيث كان يدرس الحديث النبوي و التصوف. له مصنفات منها: نظام العقائد ، و الرسالة المرجئة ، و فخر الحسن ، و رسالة عين اليقين. توفي في ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م و دفن في مهرولي بجوار ضريح الخواجة قطب الدين بختيار كعكي قدس سره (أنظر فخر الطالبين، و مناقب فخرية ، و تكملة سير الأولياء ، و قواعد فخرية) .

(١٩) ملفوظات عزيزي . (مطبع هاشمي ميرت)

(٢٠) الشاه عبد العزيز المحدث الدهلوي ولد في ٢٥ من شهر رمضان ١١٥٩هـ/ اكتوبر ١٧٤٦م و استكمل دراسته على يد الشيخ محمد عاشق و البابا فضل الله الكشميري و الشيخ نور الله البودانوي، كان من عباقرة عصره يلقب بسراج الهند. من ارشد تلاميذه كل إخوانه ، و السيد أحمد الراي بريلوي ، و الشاه غلام علي الدهلوي ، و المفتي إلهي بخش الكاندلوي ، و الشاه محمد اسحق المحدث و غيرهم كثيرون ، توفي رحمه الله في السابع من شوال ١٢٣٩هـ/ ٦ يونيو ١٨٢٤م و دفن بجوار أبيه و جده في مقابر مهنديان بدلهي . له مصنفات كثيرة منها : تفسير *فتح العزيز* و *سر الشهادتين* و *بستان المحدثين* و غيره.

(أنظر: نسيم أحمد الفريدي . الشاه عبد العزيز الدهلوي مجلة ثقافة الهند المجلد: ٤٠ و العدد: ١-٢ ، و محمود أحمد بركاتي . الشاه ولي الله الدهلوي و أسرته و نزهة الخواطر)

[عرضت في المؤتمر الدولي لمجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية المعقود في تهران ايران ١٥ ـ ١٧ شهر ربيع الأول ١٤١٣ هـ]

الزخرفة و صناعة الأوانى الخزفية
خلال العهدين القديم والأوسط للهند

بقلم: ضياء الدين الإصلاحى
دار المصنفين، أعظم جراه

مازالت الهند تعتبر مهداً للعلم و الفن و الحكمة ، و مركزاً لفنون النقش و الصناعة و الحرفة ، و تتروّج فيها زخرفة العمارات و تطريز الأقمشة و صناعة الأوانى الخزفية ، منذ عهدها القديم ، و فيما يلى نتقدم ببحث موجز فى فنون النقش و الزخرفة و الصناعة و أحوالها خلال العهدين القديم و الأوسط من عهودها ، الفنية بالحضارة و الثقافة العريقتين ، و الثرية بالتراث و العطاء التاريخين.

لقد تكشف بعد عمليات الحُفر أن الناس فى العهد الحجرى القديم كانوا يستخدمون الآلات الخشنة المنحوتة من الأحجار ، و كانوا يصتادون بأسلحتهم البشعة غير المصقلة . إن هؤلاء الناس كانوا يرتاعون من الوحوش ، و لذا كانوا يبحثون عن الأمكنة العالية و المناطق الآمنة البعيدة ، فكانوا يسكنون الجبال و التلال ، و يشربون من ما تقع حولها من الغدر و المستنقعات ، أنهم كانوا غير متعرفين إلى الزراعة و صناعة الأوانى الخزفية و إستخدام النار ، و كانوا يتوطنون جميع أنحاء البلاد ، سوى ساحات السند و نهر"جنجا" لعلهم كانوا من أصل حبشى ، تتواجد أجياله حالياً فى جزائر اندمان ، و ملايا و فى بعض قبائل آسام.

و يقال إن الناس قد اطلعوا على زراعة الأراضى و صناعة الأوانى و إستخدام النار فى ما بعد العهد الحجرى القديم و صنعوا آلاتهم من الحجر و الحديد ، فكانوا يحترفون الزراعة و يستأنسون الحيوانات و يلبسون ملابس القطن و الصوف. أنهم كانوا يقطنون المغارات ، المزخرفة بالأزهار ، و المنقوشة بمناظر الصيد و الرقص.

و يصعب لنا أن نعين العهد الذى استخدم فيه الإنسان المعادن أول

الأمر. و لكن العثور على الالات المعدنية مع الالات الحجرية في العهد الحجرى المتأخر الجديد ، يؤكد أن استخدام المعادن كان قد تروّج شيئاً فشيئاً في العهد نفسه. فنجد في الشمال استخدام النحاس الأحمر و كانسي (نوع من معدن) قبل إستخدام المعادن الأخرى ، ثم يأتي عهد الحديد. و أما في الجنوب فنلاحظ آثار العهد الحديدي في ما بعد العهد الحجرى مباشرة و لانجد في هـذه المنطقة أية علامـــة تدل على تواجد إستخدام النحاس الأحمر و كانسي .
و من الات النحاس الأحمر و الحديد في هذا العهد نجد قؤساً و سيوفاً و انصال الرماح و غيرها.

حضارة وادى" السند

أن الأشياء المنكشفة حالياً بعد حفريات موهن جودارو و "هرابا" من العمارات الشامخة و الشوارع الواسعة و الأزقة الفسيحة ، تدل على أن الناس في عهد حضارة السند كانوا مطلعين على مبادى" الحياة المدنية و المعايشة الحضارية ، فإنهم كانوا يزرعون الحنطـة و الشعير و يستأنسون الحيـوانات و يصنعون الأدوات المنزلية من المعادن و الخزف ، حيث كانوا يزخرفونها بأشكال الأحجار و الأوراق بالكثرة ، و الأواني المستعملة في هذه الحضارة كانت مصنوعة على آلة الفخّار ، و بعضها كانت مصقولة جداً. و منها الدنان الكبيرة و الطسوت و الأكواب و الصحون و الأطباق المتنوعة و الجرار المصنوعة من مختلف أصناف الأحجار. و فيما يتعلق بالمعادن فإنهم كانوا عالمين بإستخدام النحاس الأحمر منها ، حيث كانوا يصنعون بـه الأواني المنزلية و الأدوات الحربية ، و قلّما نجد في حضارتهم إستخدام "كانسي" في صناعة الأسلحة.

أن الأشياء المستعملة في حضارة وادى" السند و المعثورة عليها حالياً تثبت لنا براعتهم الفنية و مرتبتهم الحضارية في الفنون الجميلة و الميول الثقافية ، فعثر العلماء على أشكال عصافير ذات الصفارة مثلما تصنع هذه الأيام ، و نماذج طريقـة مـن تماثيل الرجـال التـي تـذكرنا بالعهدين العلمي و الصناعي ليونان القديم ، و على تمثال رقاصـة تظهر في حالة الرقص ، بالإضافة إلى عدد كبير من تماثيل تتشبه بالملاكة السوداء التي ظنها المؤرخون أن الناس كانوا يعبدونها في الحضارة المذكورة أعلاه.

إن الناس في حضارة وادى" السند كانوا يلبسون البسة بسيطـة متظاهرة ، و نسائهم كن يلبسن لباساً صغيراً عادياً يدعى باللغة الهنديـة "سايه" حيث يبقين أعلى جسمهن مكشوفاً حتى يزينّه بالعقود المصنوعة من درر العقيق أو الذهب أو الخزف . و كن يشددن عليه (على سايه) الحزام الدورى للتزيـين.

و إن الأغنياء منهم من الحكام و العباد كانوا يرتدون ملفافاً ثميناً على

حللهم الزاهية الثمينة. بينما كان بؤساءهم يقتنعون بإزار واحد يسمى باللغة الهندية "بهوتي" و كل ذلك يدل على كون الحضارة ، حضارة متقدمة في مجالات الزخرفة و النقش و التجميل.

إن سكان الهند القدامى "دراوڑ" كانوا يعلمون إستخدام المعادن بكل براعة و مهارة ، و أوانيهم الفخارية أيضاً كانت أكثر صفاءً و نقاءً و دقةً ، كما نجد على أسوار معابدهم (المنادر) أبواباً رئيسية مرتفعة زخرفت بصور ألهتهم التي كانوا يعبدونها.

و فيما بعد حضارة "هرابا" حيثما حفرت الآثار التاريخية ، قد وجدت الأشياء الفخارية أيضاً هناك بالضرورة ، ففي عهد " فيدا " كانت قد ترقت حضارة الآريين إلى حد فائق لم تكن عليه من قبل ، فإنهم كانوا يعلمون صناعة الأواني الفخارية و الألوان المختلفة ، و الزخارف المتنوعة، و كان قد بدأ في عهدهم فن تطريز الثياب ، فكان الأمراء و الأغنياء منهم يستعملون الألبسة المصبوغة و الحلل الذهبية متطرزة الأكمام و الكتفين.

و أما ما نجد في عهد البوذيين من أهل الحرفة فهم الجوهريون و الصواغون و النقاشون و الفخارون و الصباغون و الطباخون و الحدادون و غيرهم من المحترفين و المهنيين .

فالفخارون كانوا يصنعون الأدوات المنزلية من الأكواب و الصحون من كل الأنواع و يبيعونها بالجولات . و كان العاملون على الأحجار ينحتون الأعمدة و ينقشون تماثيل البارزة على الأحجار كما كانوا يصنعون صناديق الحجرية و الأكواب البلورية و الأصناف الحجرية الدقيقة و الفنية الأخرى.

إن النقاشين كانوا يلمعون البيوت و يزينونها بالصور الجميلة و يبطنون الأشياء الخشبية بالنورة الجيدة و يزخرفونها بأنواع من النقوش و التزيينات و كانوا يتقدمون بأعلى نماذج الفن و التجميل ، و كان العاجيون يصوغون الأدوات المنزلية الصغيرة من العاج و يزينونها بأجمل أعمال الزخرفة و النقش ، و كان الصباغون يصبغون و يطبعون الثياب المنسوجة ، كما كانت النساء يحترفن الزركشة و الصباغة و التطريز.

و في أواخر عهد " فيدا " كانت تصنع الأكواب و الأواني من الذهب على الأكثر . و كانت ترسم الأصنام و تنقش المنادر و الأبواب و الشبابيك بأجيد الرسوم و النقوش، على أن العمل الذهبي كان عاماً في قصور السلاطين الهندوكين ، و كان الأمراء و الأثرياء من الهندوكين ينقشون الجدران و البيوت و يرصعون الأبواب الخشبية بالمعادن و الألوان . كما أن الكراسي و المقيمات و ستائر الأبواب في هذا العهد كانت ترسم بصور الناس و البيوت و بمناظر مختلفة الأنواع ، حتى أن النقاشة و الزخرفة و التزيين كانت ميزة خاصة لجدران بناءات هذا العهد . و كانت تتجاوز الحدود في أكثر الأحيان. و أن الجدران الخارجية أيضاً كانت تنقش بأشكال الحيوانات و الورود

و الدوائر و النقوش المموجة و بالأشكال المتنوعة الجميلة الأخرى ، و كانت تبطن و تطلى داخلياً و خارجياً و في معابد ديانة جين كانت تنحت و تنقش السقوف و الأعمدة و الجدران بتماثيل و الحكايات المتعلقة بالديانة نفسها.

و في عهد سلطنة " موريا " نرى الكثيرين من كبار الملوك و السلاطين مثل "شتندراغفتا" و "أشوكا" الذين رعوا فنون النقش و التجميل و التزيين و ربوها في أحضانهم ، حتى أنها تفوقت على العهود السالفة ، و أصبحت إضافة نادرة إلى تاريخ النقاشة و التزيين .

و مع أن عمارات هؤلاء الملوك كانت مصنوعة من الخشب و معظمها لم تتوقف إلى زمن طويل و لكننا نجد في عهودهم نماذج جيدة من فني النحت و البناء فأعمدة ذات حجر واحد تعتبر تذكاراً بنائياً خاصاً لعهد "جوبتا" و تدل على كون العهد متقدماً و راقياً في ميدان النحت و نقش الأحجار.

كما أن أعمدة " أشوكا " ذات حجر واحد نموذج للنحت الجيد و الأستاذية المدهشة . فالعمود الحجري القائم في عمارة "كوتله فيروز شاه بدلهي" يصقله يخدع الناس بكونه معدنياً ، و العبارة المنقوشة عليه تجذب أنظار الناظرين و تستحق الثناء و التقدير.

إن الأعمدة و القباب المشيدة في عهد "أشوكا" تعتبر هامة جداً من ناحية الفن و التعمير ، فبعض من الأعمدة أعدت تماماً بصخرة واحدة من الحجر بدون أي مفصل أو انفكاك بينما استعملت على رؤوس بعض منها صخرة واحدة كبيرة الحجم.

إن هذه الأعمدة تحمل على رؤسها تمثالا أو عدة تماثيل من الحيوانات ، نصبت في أطر مصنوعة من الحجر فنجد على عمود "سارناته" أربعة تماثيل للأسد متصلة الظهور ، و ا لأطراف المزينة بالنقوش الجيدة و الألوان السوداء . كما نجد عليه أشكال العجلات و الأزهار ذات أهمية ثقافية خاصة بالهند.

و في عهد سلاطين " موريا " كانت الزخرفة و الترصيع من الفنون اللطيفة و الشائعة جداً ، على أن النحت و النقش كانا قد وصلا إلى ذروة الكمال في عهد " جويتا " فالأعمدة المذهبة في قصره كانت مزينة بأشكال عصافير الفضية و النقوش الرائعة الأخرى ، و زخرفة جدران المنادر في عهده تتقدم بنماذج جميلة لفنون النقش و التزيين و تواجد الأشكال و الصور و تماثيل المنحوتة في الأحجاربالكثرة ، يبين لنا كمال النهضة الفنية و النقش و النحت في العهد سالف الذكر.

و إن الأشكال المرسومة على جدران منادر "ديوجره" أمثلة رائعة للنحت و النقش و التجميل ، كما أن الصور المتبقية في الجدران و السقوف لمغارات " اجنتا " تنال شهرة عالمية كبيرة و سمعة دولية رفيعة في فنون النحت و النقش و التصوير.

و يمكن لنا أن نعتبر عهد سلطنة " جوبتا " عهداً جيداً من ناحية البناء و التعمير مع أنه كان يختلف في هذا العهد أسلوب بناء المنادر في شمال الهند و جنوبها إلى حد، فضاعفت الزخرفة و الصياغة روعة المنادر المتواجـدة في " كانجـي " و " مامـلافورم " في بهونيشور (ولايـة أسـام) و " كهاجوراهو " (الهند الوسطى) و " جفن ناته فورى " (اوريسا).
كما قام أمراء "بلو" بتشييد العمارات الفخمة و المنادر الصلبة في ولايات الجنوب و كثروا من نقش مواجهاتها ، ثم قام أمراء " تشول " بتزيين و ترصيع بوابات منادرهم التي هي أطرزة نادرة للفن و الكمال و مراكز هامّة للسائحين و الزوار.

و إن المسلمين فـي عهدهم ركـزوا الإنتبـاه إلـى فنون الخـط و النقش و التعمير و رقوها إلى قمـة الرقـي و الإزدهـار ، فنجد في عهدهم عـدداً هائلاً من الخطاطين البرعة و النقاشين المهرة الـذين يتضمن فنهم أنـواعاً كثيرة من الدقة و اللطافة و الجمال . فإنهم اقتنعوا بفنون الخط و النقش في البداية، و لم يسترعوا عنايتهم بفنون التصوير و التجسيم لكونهما محرمين لدى الإسلام . و لكنهم لم يبقوا على هـذا الالتزام إلـى زمن طويل و أدخلوا الصورة في أسلوب بنائهم.

و نرى كثيراً من سلاطين المسلمين أنهم علقوا اهتمامهم بنحت الآيات القرآنيـة الكريمـة و الأحاديث النبويـة الشريفة و الأبيات الفارسيـة على عماراتهم الهامـة . و نقشوا تاريخ البناء عليها بعبارات جميلة و متوازنـة. كما نصبوا طغرات فريدة لا يتسع المجال بعدهـا لمزيد من النقش و الحسن و التزئين و مع أن الملوك المسلمين كانوا قد ضربوا مثلا رائعـة في فنون النقش و البناء الإسلاميين. و لكنهم لكون بعض مهندسيهم محليين تأثروا بطراز هندوكي في البناء ، فزخرفوا مبانيهم بخطوط هندية و نقوش ذات طوابع هندوكية.

إن أول مساجد دلهي و اشهرها مسجـد " قوة الإسـلام" بناه السلطان قطب الدين ايبك ثم وسعه شمس الدين ايلتتمش في عهده ، حيث أضاف إليه عديدة من الآيات القرآنيـة الكريمة . فالمسجد كله مزين بالآيـات القرآنيـة و أشكال الأزهار المتنوعة.

و في العهد نفسه بدأ "ايبك" في تشييد "منارة قطب" التي أكملها ايلتتمش هذه المنارة أيضاً مزخرفة تماماً بالآيات و النقوش.

و في نفس العهد تروج بين السلاطين تشييد الأضرحة الفخمة و المقابر الضخمة المنقوشـة ، فعلى الجدران الشمالية الجنوبيـة و الشرقيـة لضريح ايلتتمش نجد بوابات عالية ذات محاريب ، كما نجد في الجهة الغربيـة منه ثلاثة محاريب المغلقة المصنوعة من الحجر الأحمر التي نحتت بها الآيات القرآنية المباركة بخطي النسخ و الكوفي.

إن بوابة "علائي" و مسجد الشيخ نظام الدين أولياء المسمى بـ " مسجد جماعت خانه " يعتبران من أهم عمارات عهد علاؤ الدين خلجي فجدران بوابة علائي مزخرفة داخلياً و خارجياً بالآيات القرآنية الكريمة و النقوش المتنوعة . كما زين جانب شرقي لجدار أمامي بمسجد "جماعت خانه " بعديدة من الخطوط الجميلة و النقوش الرائعة.

ساهمت سلطنة دلهي في ترويج الصناعة و الحرفة أيضاً بكل ما كان لديها من السخاء و العطاء . فكان يعمل في مصنع لإعداد الأقمشة المطرزة في عهد محمد تغلق أربعة آلاف صناع و خمسة آلاف مطرز على الحرير الذين كانوا يجهزون حللاً ملكية و أزياء أميرية من مختلف الأنواع ، و كانت بلغت الحياكة في هذا العهد قمة الأوج و الإزدهار و لذا كانت فنون الصياغة و التطريز شائعة معظم المدن الكبيرة للبلاد.

فكانت تطرز الأقمشة الحريرية و القطنية و حواشي الساريات (لباس السيدات الهنديات) بالنقوش الجميلة و الخطوط الملونة . و كانت تصنع أقمشة "تشيت" (نوع من الأقمشة المطبوعة) في أنواع متعددة . كما كانت تزين بطانات الألحفة و ملايات السرر بأنواع من عمل التطريز و التلوين.

إن الهند تعرف لأعمالها المعدنية الممتازة منذ القديم فقد اثنى العرب على السيوف الهندية في أشعارهم بالكثرة ، و صناعة الصحون و الأطباق و أغطيتها، و الأكواب و أباريق من النحاس الأصفر و الساعات الجدارية و الأواني و مسارج و علبات التنبول كانت تعم البلاد كلها و صناعة الأواني الفخارية و الدلاء الجلدية في عهد السلاطين المملوكين كانت تعد هناك من صناعات بسيطة عادية ، و كانت تتوفر الأواني الذهبية و الفضية في كل مدينة من البلاد ، كما كانت تصنع الأواني و شبابيك و الأبواب و اللعب من الخشب المنقوش للإستخدام في البيوت و أما صناعة الأواني الصينية و سجاجيد المنقوشة و المطرزة فكانت في طريقها إلى التطور بعد الإيجاد.

و لا يخلو عهد السادات و اللوديين أيضاً عن ميول النقش و التزيين و المميزات الفنية و الثقافية الأخرى فتقدم اللوديون في تشييد الأضرحة تقدماً ملموساً و بنوا عمارات صلبة و متينة و مزخرفة.

و لما جاء سلاطين " مغول" بلطائفهم الفنية و خصائصهم الحضارية ابلغوا فنون التعمير و البناء أوج التقدم و الإزدهار . فنلاحظ في عهدهم أنواعاً كثيرة من اختراعات صناعية و ابداعات بنائية لم يسبق لها مثيل ، فالعمارات الفخمة المشيدة خلال فترة مابين عهدي السلطان "أكبر" و السلطان شاهجهان تقدم لنا نماذج طريفة من النقش و الجمال.

كما أخترعت في هذه الفترة أنواع مختلفة من تطريز الأقمشة و الأزياء ، فكانت تتخصص الألبسة النسائية فيها بأعمال الزركشة و التطريز و الحواشي الذهبية على القمر.

لقد ازدهرت الحياكة في هذه الفترة إزدهاراً واسعاً و يمتاز بها عهد السلطان "أكبر" على وجه الخصوص فظهرت في عهده بمدن "اجره" و "فتح فور" و أحمد آباد صناعات لطيفة و أنواع نادرة من الحياكة و الزركشة و التطريز و مدينة "أحمد آباد" كانت تعتبر مدينة هامة للنسج و الحياكة على الأخص . حيث كانت تصنع فيها الأقمشة المطرزة من أنواع كمخواب و "مخمل" و "تشكن و كارتشوب" ، و زرى ، كما كانت تطرز الخيمات الكبيرة بأسلاك فضية و ذهبية . و قد تصنع أعمدة الخيمات كلها من الذهب و الفضة.

كما شجع السلطان "أكبر" صناعة الشيلان الكشميرية تشجيعاً كبيرا و أوجد فيها الواناً متعددة، فإنها أولاً كانت تصنع في كشمير و بثلاثة أو أربعة أنواع فحسب . ثم بتشجيع السلطان أصبح في مدينة لاهور فقط اكثر من الف مصنع لصناعتها ، و عدا ذلك كانت تستعمل أنواع كثيرة من الاشياء القماشية المطرزة و الملونة الثمينة في القصور الملكية و محافل الاميرية ، و بنغال أيضاً كانت تعد من مراكز معروفة لصناعة "ململ" المطرز و مناديل الحريرية ، حيث كانت تنسج هناك حوالي خمسة أو ستة أقسام من نوع "ململ".

لقد اخترع "مغول" اقساماً متعددة من الأواني لتجهيز الأطعمة و تقديمها على الخوان فالإناء المستعملة في مطابخ الملكية كانت تصنع من الذهب و الفضة و المعدن و الحجر و الفخار، و كانت تبيض الإناء النحاسية مرتين في شهر على الأقل و فيما يلي نأتي بعديدة من أسماء الأواني المستعملة وقتذاك في القصور و البيوت ، حتى نلقي الضوء على النهضة الصناعية في عهد سلطنة "مغول".

قدر كبير، قدر صغير، قدر أصغر ، صيني ، طاجن كبير، طاجن صغير، سفود، طاجن ، (لطبخ الخبز) ملقاط ، طست ، مغرفة كبيرة ، مغرفة صغيرة ، لوح حجرى .

و لتقديم الفواكه و الأثمار على الخوان كان الملوك يستخدمون الأكواب الزجاجية و الأطباق النحاسية و الأواني الذهبية و الفضية الأخرى . و نبين فيما يلي أسماء بعض الأدوات المنزلية و المطبخية التي كانت تستخدم في مطابخ الملوك بوجه الخصوص.

"المسرجة الزهرية ، المشربة الفخارية (المصنوعة من الخزف الصيني) الصحن الكبير (لتقديم الأرز) الصحن الصغير ، الطبق ، الكوب الكبير، الكأس الكبير، الكأس الصغير ، الفنجان المقلاة ، صحنة بوقال ، الخوان ، الصينية ، الصينية الكبيرة ، المنضدة ، الخزانة ، الكوب ، الجرة ، السقاية ، الدلو ، الإبريق الكبير ، الإبريق الصغير ، و الطسوت من مختلف الأنواع و الأحجام"

ربما كانت تصنع إناء الطبخ و الأكل من الخزف . و كان يستعملها الأمراء و الفقراء كلاهما لكون بعض المطبوخات أكثر لذة و رائحة عند الأكل لو طبخت

في القدور المصنوعة من الخزف و كانت تصنع مباصق و الاعيب و الزهريات و الشيشات و الثمار من الخزف ، حيث تصقل هـذه الأشياء بالألوان المختلفة و النقوش المتنوعة ، و كانت قد تستخدم عديدة من الأواني الخزفية في تزيين مجالس الملوك و تجميل محافل الأمراء ، و كان لابد من كونها منقوشة و مزخرفة . و سبق في بيان الشيلان الكشميرية النادرة و الشهيرة في العالم أن فنون الصناعة و الزخرفة في المناطق الهامة و المدن المركزية للهند كانت على قمة الرقي و الإزدهار.

إن النقوش و الزخارف الزاهية على إناء الكشميرين يميزهم عن فنون الهند و إيران فكانوا يصنعون أباريقهم من النحاس الأحمر على العموم. و يستلزمون عليها النقش و الترصيع و التبييض ، و يركبون فيها القبض المصنوعة من النحاس الأصفر التي تكون مثل رأس الثعبان الصيني أو ذنبها، و هذه القبض مع تواجد العلامات الفنية الهندوكية عليها ، تحمل طابعاً إيرانيا في صنعها.

و ماعدا الأواني المعدنية كان قد ازدهر فن النقش على الخشب في عهد سلاطين كشمير ، و لكنه لم يتبق عندنا إلاّ نموذجاً واحداً و هو باب المسجد المدني و شبابيكه النادرة ذات سجاجيدة منقوشة.

و لا تخلو العمارات المشيدة في هذا العهد عن النقش و الزخرفة و الفن التي تؤكد لنا ارتعابا قديماً للكشميريين في هذه الفنون.

كما نرى في المدن المتعددة بولايتي راجستهان و غجرات عديدة من الأبواب المصنوعة في العهد الأوسط و المنحوتة بأحسن الزخارف و أجمل النقوش ، فاعمدة المعبد الهندوكي في " تادولي" مأثرة خالدة لأعمال النقش و اللطافة و الدقة و الكمال.

و لا شك أن منطقة غجرات من كبرى المناطق التي تشرفت بمتابعة الملوك و اهتمام السلاطين و تمتعت بلطائفهم و تخصصاتهم في النقش و الزخرفة و التجميل ، ولكن معظم آثارها قد اندثرت مع اندثار هؤلاء الملوك والسلاطين و بقيت لدينا عديدة من آثار الأضرحة المنقوشة و بقيات المنادر المزخرفة كنماذج خالدة لثقافة "غجرات" ذاك اليوم. و كذكرىً حية لهؤلاء المؤسسين ، في مجال الفن و التعمير . فاعمال النقش و التشبك و الرخام على الأضرحة و المساجد و المنادر المتبقية هناك تنطق لنا حكاية ذلك العهد الذهبي الذي عاشه أهالي غجرات في وقتهم القديم . و تستحقُ منا الزيارة و المشاهدة و التقدير.

إن شبابيك الحجرية الجميلة التي ركبت بإهتمام خاص في مسجد "ذي الشبابيك" بمدينة أحمد آباد يندر تطريزها في العالم . فأشكال الأشجار و الوريقات المنحوتة على بعض منها تحولتها إلى منظر بستان صغير. كما أن وريقات النخل و أشجار الجوز الهندي المنقوشة عليها بكل دقة و جمال ، تخدع

بكونها مطرزة على القماش ، فلا شك أن الزخارف الفاتنة المنحوتة على المسجد المذكور أعلاه معجزة فنية من أيادي النقاشين المهرة و الناحتين البرعة الذين خدموا فنهم و تركوه يتحدى العالم و يحير الفنانين و الرسامين إلى الأبد.

لقد ترقت صناعة تشكن" (نوع من القماش) في عهد أمراء " أودهـ" فكل من مدن بنارس و مئو و غوسي (Ghosi) و مبارك فور (أعظم جره) تعرف لصناعة الساريات القطنية و الحريرية الجميلة منذ زمان ، و مدينة بهدوني (بنارس) تعتبر مركزاً لصناعة سجاجيد ، و كانت تصنع الإناء الفخارية في مدن لاهور و ملتان و تهته و داكا و مرزافور و بنارس و نظام آباد و باتن و برودا و بهروج و سورت بكل براعة و لطافة و جمال ، كما نجد في مدن برهان فور و باتن و برودا و بهروج و سورت عدداً كبيراً من النقاشين و المطرزين البارعين حتى اليوم.

فمازالت الهند تعرف لأعمال النحاسين الأصفر و الأحمر و الذهب و الفضة و صناعة الأقمشة المصبوغة و المطبوعة و الأشياء اللطيفة المصنوعة باليد و اختراع أنواع عديدة من القماش مثل أقمشة "جامه دار" و كمخواب منذ فجر الحضارة كما تحمل سمعة طيبة و شهرة واسعة في مجال فنون النقش و تلوين الأشياء الخشبية و البنائية و نحت و ترصيع الأحجار ، و زخرفة الأواني و زركشة و تطريز الأقمشة منذ عهدها القديم . و لا تزال الأشياء المصنوعة في الهند تطلب بعدد هائل في الدول الخارجية لحد الآن.

تعريب : محمد مزمل الحق الحسيني

المصادر و المراجع :

١ـ أبو القاسم صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين بيروت (١٩١٢م)

٢ ـ أحمد علي القلقشندي: صبح الأعشى ، دار الكتب المصرية مصر ، (١٩٢٠)

٣ ـ بي ـ ايم باتيكار : تاريخ الهند القديم مكتبة الجامعة الملية الإسلامية عليجراه (١٩٦٤م)

٤ ـ تي ـ دبليو ـ ريس ـ ديويدس : الهند البوذي (ترجمة الأستاذ سيد سجاد) دار الطبع بالجامعة العثمانية بحيدر اباد (١٩٢٢م)

٥ـ العلامة عبد الله يوسف علي. الأوضاع الإجتماعية و الإقتصادية في الأزمنة الوسطى لتاريخ الهند ، المجمع الهندي بـ "إله أباد" (١٩٣١م)

٦ـ كوري شنكرا اهيرا اوجها. الحضارة الهندية في القرون الوسطى ترجمة منشي بريم شتندرا. المجمع الهندي بـ "إله أباد" (١٩٣١م)

٧ـ العلامة شبلي النعماني: مقالات شبلي (المجلد السادس) مطبعة "معارف" أعظم جراه. (١٩٣٧م)

٨ـ السيد صباح الدين عبد الرحمن. نظرة عابرة على العهد الأوسط للهند ، مطبعة معارف أعظم جراه (١٩٣٧م)

اشراقات حضارية في عهد سلاطين المسلمين للهند. (مطبعه معارف اعظم جراه ١٩٦٣م).

٩ـ السيد ابو ظفر الندوي. التاريخ الحضاري بگجرات ، ندوة المصنفين دلهي (١٩٤٨م)

البطولات الحضارية في عهد سلاطين المسلمين للهند (مطبعة معارف اعظم جراه) (١٩٦٣م)

١٠ـ الدكتور السيد معين الحق. فن البناء في العهد الإسلامي . دائرة معين المعارف كراتشي (١٩٦٥م)

تاريخ الهند و باكستان (الجزء الأول) دائرة معين المعارف كراتشي (١٩٦٦م)

١١ـ البروفيسور محب الحسن: الكشمير في عهد السلاطين (مطبعة معارف أعظم جراه) (١٩٦٧م)

١٢ـ سطارش حسين رضوي. تراثنا الحضاري ، جمال برنتنغ بريس دلهي(١٩٦٧م)

١٣ـ راما شنكرا ترباتي. تاريخ الهند القديم(ترجمة السيد سخي حسن نقوي) ترقي اردو بيورو نيو دلهي. (١٩٨١م)

١٤ـ اي . ايل باشم : الماضي المشرق للهند (ترجمة ايس غلام سمناني) ترقي اردو بيورو نيو دلهي (١٩٨٢م)

تيبــو سلطـــان

(تيبو سلطان حاكم إمارة ميسور في الهند سابقاً)

بقلم : دكتور سيد داؤد أشرف
أمين المحفوظات في خزانة السجلات
حيدرآباد - ولاية آندرا

من أعماله المجيدة:

[تحتفل حكومة كرناتكا بذكرى مرور مائتي عام على وفاة تيبو سلطان. فقد أعلن كبير وزرائها المستر ويرابا مونيلي بدء برامج جديدة بهذه المناسبة. و قد تم إعداد هذا المقال باستعانة خزانة المخطوطات و السجلات بحكومة أندهرا براديش.]

هناك انطباع عام بأن تيبو سلطان لم يكن إلاّ محباً للوطن و فارسا شجاعاً فحسب، و لاشك بأن قصص جرأته و حكايات بسالته و شجاعته قد أصبحت تزين الكتب و وجدت مكاناً مرموقاً في التاريخ. و إن السلطان كان تجسيداً لهذه الصفات الجليلة و لكن لم يكن فيه كل ذلك فقط. و إنما كان فيه المزيد إلى جانب ذلك. إذ أنه كان حاكما لإمارة فقد وضع نصب عينيه تحسين النظام و القانون و رفع مستوى الزراعة و إقامة مجتمع سليم و تطهيره من الرذائل و السيئات . و لا ينحصر الأمر في ذلك بل اتخذ خطوات سريعة لوضع أفكاره و نظرياته و آرائه موضع التنفيذ. فمجمل القول إن له كانت منزلة مرموقة و شأن عظيم بين الحكام الآخرين.

و في هذا المقال يعرف الكاتب بمخطوطة فارسية هامة ، نادرة بإسم حكم نامة (كتاب الأوامر) فتسلط هذه المخطوطة ضوءاً كافياً على السياسات الزراعية و الإقتصادية و الإجتماعية و ما يتعلق بنظام الحكم. و هي محفوظة بسجلات ولاية أندهرابرابيش. و أنها تعتبر مرجعاً تاريخياً ثميناً للتاريخ

فى الهند. فقد اعدت هذه المخطوطة في عهد السلطان في عام ١٧٨٧م. و فى صفحتها الأول ختم لـه و فـى الأخيرة منها بعد إنتهاء المتن توقيـع لـه. و قد استوعب الكاتب المؤرخ جميع المراجع و المصادر المتوفرة فى داخل البلاد و خارجها . و قد ذكر في كتابه القيم المؤلف باللغة الإنجليزية بإسم History of Tibu Sultan (تاريخ تيبو سلطان) مرسومـاً توجـد فيـه تعليمات السلطان للسفراء المبعوثين إلى تركيا. كما كتب المؤلف أنه توجد بمكتبـة الجمعيـة الأسيوية الملكية فى البنغال (Royal Asiatic Socity) مراسيم سلطانية أخرى أيضاً. كما ذكر الكاتب أن أوامر السلطان كانت تصدر من سـرنجا بتنـم بثلاث لغات و هى الفارسية و الكنارية و المراثية. و المراسيم الملكى الموجودة فى ارشيف حكومة أندهرابراديش المكتوبة بالفارسيـة لها تراجم إلـى لغتى الكنارية و المراثية. و توجد فيها ١٢٩مرسوما. و قد صدرت إلى مسئول محكمة ظفرأباد بمركز جمل مرو. و إن التاريخ المندرج في نهاية السطر الأخير للمخطوطة يقول: تحريراً فى ١٨ من شهر "رباني ٥١٢١ المحمدى" إلا أن التاريخ المذكور لا يوضح الشهر و السنـة ٥١٢١ و التقويم توضيحـاً تاما إلاّ بعد جهد جهيد.

و المخطوطة تشير إلى أن السلطان قد اتخذ خطوات جديدة فى مجالات عديدة من الحياة . فقد اعلن السلطان ، خلال يناير ١٧٨٤م تنفيذ تقويم جـديـد. و استلهم أسماء الشهور الإثنا عشر من شهور التقويم الهجرى. إلاّ أن السلطان قد أجرى بعض التعديلات على تقويمه و قد غيّر أسماء بعض الشهور. و في هذا التقويم الجديد يوجد الشهر الأخير بإسم "رباني" كما غيّر السلطان الطريقة العادية لكتابة الأعداد. ففى الطريقة العادية الرائجـة تكتب الأعداد من اليمين إلى اليسار. و لكن بموجب الطريقة الجديدة التى ابتكرها السلطان تكتب من اليمين إلى اليسار. و على هذا أن الأعداد المذكورة فى المخطوطة ٥١٢١ ينبغى أن تكون ١٢٥١. و لكـن يظهر أن هــذا غيـر صحيح حيث السلطان كان قد استشهد حتى ذلك الوقت. و يتضح أن السلطان بدأ تقويمه من العام الذى اعلن فيه الرسول نبوتـه. ، يتبين من بعض المرسومات المختارة السمات البارزة للزراعة و المجتمع و بعض الميزات الأخرى فى عهده. و إلى جانب ذلك يتضح منها افكار السلطان الإجتماعية و نظرياتـه و نوعيـة المجتمع الذى كان يريد أن يبنيه.

إن مسألة تحريم المسكرات لا تزال تشكل مشكلة هامة و لها أولويـة فـى شبه القارة. و إن موقف السلطان من المسكرات و تحريمها واضـح كل الوضوح و ليس فيه أدنى مجال للشك. و تتضح السياسـة الزراعيـة و الغذائيـة بالمرسومات الاتية. التى تقول :

"إذا قلّت محاصيل القمح و الذرة فى منطقة، ينبغى فرض ضريبـة

بأربعة أسباب الراحة بدلا من خمسة الأسباب لمدة ثلاث سنين. و من العام الرابع تؤخذ الضريبة كالعادة. و في مكان تزرع فيه الحبوب الزراعية دائماً. فينبغى إعطاء الاراضى على أساس الإقتسام فى الغلة لزيادة القمح و الذرة و تشجيع التجار على زيادة توصيل القمح إلى الأسواق و الإعفاء عن ربع الضريبة. و فى هذه الحالة ينبغى للمزارعين الزيادة فى زراعة الحمص و العدس و الفصوليا و الخضراوات . و المزارعين الذين يبدأون لأول مرة زراعة الجوز الهندى ، فينبغى اعفاؤهم لمدة أربع سنين عن دفع العوائد. و فى السنة الخامسة تؤخذ منهم العوائد بمقدار النصف. و من السنة السادسة تؤخذ منهم كالعادة. و الخضراوات المزروعة تحت الأشجار تترك للمزراعين لمدة أربع سنين ، و فى القرى التى أرضها خصبة و صالحة للزراعة فيجب أن يطلب من عمدها و رؤسائها الزيادة فى زراعة قصب السكر. و فى القرى التى تصلح أراضيها لزراعة قصب السكر و عمدها و رؤسائها يتساهلون فى زراعتها ، فتؤخذ منهم الضريبة مضاعفة من الضريبة المقررة. و إذا بدأ المزارع زراعة الفوفل لأول مرة. فتعفى منه الضريبة لمدة خمس سنوات"

ان أحكامه بشأن الأرض و ضرائبها لها أهمية كبرى فى سياسة السلطان الإقتصادية. و لكنه من أجل تنفيذ هذه السياسة لا يتجاهل عن قمع الفساد. و إن مرسومات السلطان التالية تؤيد هذا القول :

"المزارع الذى يزرع البذور بمقدار معين ، فتعطى له الأرض بمقدار ٨ كروة حصة لأعضاء أسرته. و يحدد هذا المقدار كل سنة بعد معرفة الزيادة و النقص. و تعطى نصف العائدة للحكومة و نصفها للمزارع. و يؤخذ هذا العائد نقداً. و يجب أن لا تعطى قريتان لشخص واحد بالأجرة. و إنما قرية واحدة فقط لشخص واحد حسب النظام. و تقرر الأجرة على أساس تفاصيل الإنتاج الزراعى الحال و الماضى . و تؤخذ من الأجير وثيقة . و إذا لم يزرع الأجير المتعهد الأرض و تركها غير مزروعة فتؤخذ منه الغرامة حسب الوثيقة من دخوله الأخرى. و فى هذا الصدد يراعى بان لايظلم أحد على المزارع عند أخذ الغرامة. و يعين لكل قرية عمدة منذ البداية. و إذا فشل العمدة فى اداء واجبه فيعين محله شخص أخر ذو أهلية من بين المزارعين. و إذا جمع محصل ضريبة أكثر ممّا هو المقرر و يودع فى خزينة الحكومة مبلغاً أقل فيجب أن يجرى فيه التحقيق بطريقة جيدة. و تمسح الاراضى من جديد و تحصل الضريبة كالمعتاد. و العمد الذين يزرعون

الأراضي بأنفسهم أو باستعانة شخص اخر، فتؤخذ منهم الضريبة كالمعتاد. تودع في خزينة الدولة. و المحصلون و الموظفون الرسميون الاخرون الذين يأخذون بدل التنقل في القرى فيجب إيقاف العمل به و اعتباره محرما. و تلغى هذه القاعدة منذ الان فصاعدا. أما علاواتهم الاخرى فسوف تدفع لهم من خزينة الدولة"

أما المسكرات فيعتبرها السلطان مصدرا و أمّا للعديد من السيئات. فهو يريد أن ينفذ قانون تحريم المسكرات بطريقة صارمة حتى لا تصنع المسكرات خفية أو سراً. و كذلك هو يريد القضاء على لعنة الزنا و علاقات جنسية غير مشروعة حتى يكون المجتمع طاهراً. و في هذا الصدد توجد في وثيقة المرسوم أحكام تالية

"تفرض الغرامة على كل من يزرع المخدرات (البنج) في أقاليم الإمارة. و إذا خرق أحد هذا القانون بزراعتها خلف بيته و في فنائه، فتفرض عليه الغرامة. كما تغلق جميع محلات بيع الخمور. و يطلب من صانعي الخمور أن يكسبوا عيشهم بتجارة الغلة. و المنتهك لهذا القانون يقطع يده حتى تنتهي تجارة الخمور تماما. و إذا امتنع أحد من الزواج و أقام علاقات غير مشروعة مع إمرأة ساقطة فيسلم للحكومة و تفرض عليه الغرامة ، لأنه مجرم عند الحكومة"

تعريب: شميم الحسن أمانة الله

تصويب

لقد طبع في العدد السابق (المجلد ٤٤ العدد ١) عنوان مقال الأستاذ محمد سليمان أشرف "المدخل في طمانينة النفس" بدلاً من "المدخل إلى طمانينة النفس" ، فنحن نأسف على هذا الخطأ الفاحش و نرجو من الكاتب الفاضل الاعفاء منه .

(التحرير)

الحلقة الثانية:

حركة السيد أحمد خان التعليمية

بقلم: البروفسور أختر الواسع
قسم الدراسات الإسلامية
بالجامعة الملية الإسلامية ، دلهي الجديدة

التعليم الديني:

و قد ظلّ المؤتمر منذ البداية يؤكد على أهمية تدريس العلوم الدينية في المدارس في جميع مراحل الدراسة من الابتدائية إلى العليا و اتخذ أكثر من مرة قرارات عديدة حول ضرورة تحفيظ القرآن الكريم(١) فقد وافق في ١٨٩٦م على قرار داعياً إلى إصلاح الكتاتيب و المدارس التقليدية القديمة المعنية بتحفيظ القرآن الكريم و تدريس العلوم الدينية (٢) و في ١٨٩٨م على قرار آخر حول وجوب تدريس العلوم الدينية في كلية عليجره الاسلامية (٣) كما اتخذ في ١٩٠٦م قراراً أبدى فيه تأييده لدار العلوم التابعة لندوة العلماء بهدف طمأنة الحكومة الاقليمية لولاية أترابراديش عن نشاطاتها و استرداد ثقتها فيها و التي كانت قد أصبحت سيّئة الظن عنها. و اتخذ المؤتمر كذلك قرارات أخرى عديدة مؤكدة من خلالها على ضرورة تدريس العلوم الدينية لطلاب المدارس الانجليزية و العصرية و كانت النتيجة أن سمحت الحكومة المتحدة لولاية آغرة و أودهـ و ولاية البنجاب بتدريس العلوم الدينية للطلاب المسلمين في المدارس و الكليات الحكومية (٤).

و عندما رفعت فتنة الردّة رأسها في أوائل هذا القرن تحرّك المؤتمر في معارضتها و قام بإنشاء كتاتيب خاصة لتعليم القرآن الكريم و اللغة الأردية للمسلمين السذج الذين كانوا يعيشون في القرى و الأرياف و يقعون فريسة سهلة للفتنة لجهلهم بالدين (٥). و اتخذ المؤتمر قرارات عديدة حول إنشاء مدارس خاصة في طول أنحاء البلاد من أجل تدريب الأئمة و تربية الطلاب المتخرجين من المدارس الاسلامية للعمل كالدُعاة فيما بين عامة المسلمين (٦) و أكد على ضرورة إعداد كتب و رسائل متصلة بهذا الموضوع ونشرها و توزيعها على الناس (٧) إلى جانب إيلاء الاهتمام لإعداد رسائل علمية مؤثرة حول سيرة النبي صلى الله عليه وسلم (٨) .

و علـى كل ، ففـي ضوء ما ذكرنا آنفاً ، لا نكـون مخطئين او مبالغين إذا قلنا أن لجهودات المؤتمر كان دوراً بارزاً في إجراء و تطوير دراسة العلوم الدينية في جامعة عليجره الاسلامية.

العلوم الصناعية و التكنولوجية :

كان المفكرون و الزعماء الاسلاميون في الهند قد اتفقوا على ضرورة ترويج العلوم الصناعية و التكنولوجيـــة في الهنـــد بعد ١٨٥٧م، و الذي كان قد أصبح من أهم متطلبات الوقت في ضوء التغيرات السريعة المدهشة في مجال الصناعة والتكنولوجيا . كانت الصناعات التقليدية في الهند تمرّ بمرحلة خطيرة جدا من تاريخها و تلفظ أنفاسها الأخيرة أمام موجة من الصناعات الحديثة المزوّدة بأحدث الالات و الأجهزة التي تدفقت إلـــى البلاد مع الانجليـــز ، و كان أهلها قد بدأوا يفلسون و يتخلّفون اقتصاديا بعد أن بدأت واردات أوروبا تملأ الهند و أسواقها (٩) . و من هنا ، فقد كانت الحاجة شديدة لإنقاذ الهنود من تلك الأزمة الاقتصادية و الصناعية و ذلك الإفلاس المهدّدين من خلال ترويج العلوم الصناعية و التكنولوجيا فيما بينهم ، فوجّه المؤتمر في اجتماعه السنوي المنعقد في ١٩٠٤م نداءاً إلى الأمة الاسلامية لإجراء منح دراسية خاصة لدراســة العلوم الصناعية و الهندسيـــة و التكنولوجيـــة (١٠) ، و لكن لم يجد للأسف أذناً مصغية . و أكدّ المؤتمر من خلال قرار اتخذه في ١٩٣٣م في الاجتماع المنعقد في لاهور على هذا الأمر من جديد و شكلّت لجنة خاصـة لدراسـة هـذا الموضوع و إعــداد تقرير شامـل حول طريقـة ترويـج العلـوم الصناعيـة و التكنولوجية فيما بين المسلمين (١١). و قدمت هذه اللجنة المكوّنة من الدكتور ضياء الديـن و الحافظ محمد ابراهيم و المولانا طفيل أحمد المنغلوري تقريرها في الاجتماع السنوي المنعقد في مدينة ميرت (١٢)، و لكن الحقيقة المرّة التي يجب أن أصرّح بها هنا هو أن كل هذه الجهود الحثيثة للمؤتمر ذهبت سدى و لم يول المسلمون لهذا الجانب الهام الاهتمام اللائق به.

تعليم المرأة :

إن موضوع تعليم البنات كان يتمتع بأهمية و حساسية بالغة في عهد السير سيد أحمد خان ، و لذلك ، فانه على الرغم من كونه من المؤيدين المتحمّسين لتعليم المرأة و تثقيفها (١٣) رأى من المصلحة، و الذي كان من متطلبات ذلك الوقت أيضا، أن لا يتعرّض لهذا الموضوع في شكل حماسي نشيط، و لكنه لم يتغافل عنه تماما أيضا. فقد اتخذ المؤتمر في ١٨٨٨م قراراً بخصوص إنشاء كتاتيب و معاهـد مستقلـة لتعليم البنـات وفقاً للأصـول و المتطلبات الاسلامية (١٤)، و بعد ثلاث سنوات فقط ، أثار المؤتمر موضوع تعليم المرأة من جديد مؤكداً من خلال قرار اتخذه في هذا الصدد.

و بالنسبة لنوعية التعليم، فان المؤتمر يقول بانه يجب أن يكون هذا التعليم بحيث تتمكن بفضلها المرأة من التطور و التثقيف في حياتها العلمية و الخلقية و تربية الأبناء و البنات تربية إسلامية صحيحة (١٥). و وافق المؤتمر في الاجتماع السنوى له المنعقد في ١٨٩٩م على اقتراح حول ضرورة إنشاء مدرسة خاصة مستقلة لتعليم البنات (١٦) و في نفس الوقت تقرر تشكيل لجنة خاصة تابعة للمؤتمر تعنى بهذا الموضوع بصفة خاصة (١٧) .

و بما أن الشيخ محمد عبد الله كان لديه اهتمام خاص بتعليم المرأة ، تم اختياره كأمين عام لهذه اللجنة الخاصة للمؤتمر، و التي ظلّ أعضاءها يشاركون في الاجتماعات السنوية للمؤتمرباستمرار. و نتيجة للجهود الحثيثة المتواصلة للشيخ عبد الله و زوجته السيدة وحيد جهان ، فقد تمّ افتتاح مدرسة خاصة لتعليم البنات في جامعة عليجره الاسلامية ، أصبحت معروفة فيمابعد على مستوى البلاد، و هي تعنى اليوم بتدريس العلوم الدينية و العصرية إلى درجة البكالوريوس، و قد نالت الكثير من المتخرجات من هذه الكلية شهادات الماجستير و الدكتوراة و تمتعن بمكانة مرموقة في مختلف مجـالات الحيـاة. و هكذا ، فانه لا يكون من المبالغة القول بأن المؤتمر أدّى دوراً هاماً و أساسياً في تعليم المرأة و تثقيفها، حيث نجح في استرعاء انتباه عامـــة الجماهير إلى هذا المجال لدرجة أقيمت مدارس عديدة في مختلف أنحاء البلاد لتعليم البنات المسلمات، يلفت بعضها إلى مستوى الكليـات المتوسطــة و العالية.

العلوم الشرقية :

بجانب الاعتناء بالعلوم الغربية العصرية ، فقد ركزّ المؤتمر اهتمامه على نشر و تدريس العلوم الشرقية أيضا و استمرّ يتخذ في اجتماعاته السنوية قرارات أكدّ من خلالها على ضرورة الاعتناء بدارسة و تطوير العلوم الشرقية و اللغتين الفارسية و العربية (١٨)، و طالب من الحكومة إجراء منح دراسية خاصة للطلاب المسلمين تشجيعا لهم على دراسة هذه العلـوم و اللغـات الشرقية (١٩) و أكدّ على ضرورة جمع المخطوطات القديمـة باللغتين العربيـــة و الفارسية و تحقيقها و نشرها (٢٠) ، احتفاظا بالتراث الاسلامي الشرقي القديم. و طالب أيضا بتحسين تعليم الطب اليوناني و تطويره (٢١).

ليس هناك من شك في أن المؤتمـر ظلّ يحمـل أفكارا تقدميـــة دائمـا و استمر يشعر بضرورة تدريس طلاب المدارس الدينية العلوم العصرية أيضا من الطبيعـة و الفلسفـــة و التاريخ إلى جانب الاعتنـــاء بموضوع دراسة مقارنة للأديان (٢٢)، و مع ذلك فانه لم يتغافل قط عن العلوم و الآداب الشرقية الاسلامية بل تقدم دائما إلى الامام متخذا قرارات مفيدة و إجراءات عملية للاحتفاظ بها كلما شعر بخطر الزوال و الهبوط يهدّد العلوم و اللغات الشرقية في الهند (٢٣)

إصلاح المجتمع :

كانت قضية إصلاح المجتمع من تلك القضايا الخاصة الهامة التي اعتبرها زعماء المسلمين جديرة بالاهتمام الفوري بعد ١٨٥٧م. فقد كانت الحياة الاجتماعية و الثقافية للمسلمين قد تعطلت بسبب ما كان قد راج و ساد بينهم من الأفكار و العقائد الباطلة و الأعمال الفاسدة و التقاليد الوهمية المدمرة. كما أن نهاية النظام الاقطاعي القديم خلقت قضايا اقتصادية جديدة للمسلمين في جانب آخر أيضا. و الأمر الذي زاد الطين بلّة هو أن المسلمين ظلّوا في غفلة عن كل هذه القضايا و حلّها و استمروا في التبذير و الاسراف يجرّون لانفسهم مزيداً من البلاء و الشقاء و جديدا من القضايا و المشكلات (٢٤) . و بما أن الجهل كان السبب الرئيسي لهذه الأمراض الاجتماعية، لم يكن من الممكن النجاح في أي مجال من مجالي التعليم و إصلاح المجتمع بدون أن يبدأ العمل للإثنين معا.

و بعد سنتين فقط لإنشائه ، أعلن المؤتمر حربا ضد التقاليد الفاسدة الرائجة في مجتمع المسلمين و صرّح بأن تعليم اليتامى يستحق أكثر من أيّ شيء آخر أن تنفق عليه أموال الزكاة (٢٥) . كما انه أسّس فرعا مستقلا له بهدف إصلاح المجتمع في ١٩٠١م و أعد رسائل و بحوثا علمية متصلة بالموضوع و نشرها فيما بين عامة المسلمين (٢٦) . و اختير الخواجه غلام الثقلين أمينا عاما لهذه اللجنة المنبثقة من المؤتمر، فنفخ فيها روحا بفضل ما كان يوجد لديه من علم و فضل و ما كان يتمتع بـه قلبـه من نصح و تعاطف تجـاه المسلمين. و كان الناس يستمعون بآذان صاغية و باهتمام بالغ إلى أحاديثه و خطبه في الاجتماعات و التي كانت تترك في نفوسهم تأثيرا قويا و عميقا.

و أصدر الخواجه غلام الثقلين مجلة باسم *"العصر الجديد"* في ١٩٠٣م ، في محاولة للاجتثاث من الجذور تلك العقائد و الأفكار الخاطئة الفاسدة التي كانت قد رسخت في أذهان عامة المسلمين . إلاّ أن المنية اختطفته و حل محله أمينا للجنة المولانا طفيل أحمد المنغلوري ، الذي ظلّ يعمل لإصلاح المجتمع طوال حياته من خلال جهوده المضنية و مجلته العلمية الأردية التي أصدرها باسم "سود مند" (٢٧).

و اتخذ المؤتمر قرارات عديدة في الاجتماعات المختلفة بهدف تحسين الوضع الاقتصادي للمسلمين و حثّهم على الانفاق على تعليم الأبناء و البنات بدلا من الاسراف في التقاليد الواهية الفاسدة في مناسبات الفرح و الحزن (٢٨).

إلى جانب القيام بهذه الأعمال التقدمية، فقد ظلّ المؤتمر يهتمّ بإدخال الإصلاحات و التعديلات على اللغة الأردية أيضا، سعياً وراء تطويرها و تسهيلها، و يدل على ذلك بوضوح ذلك القرار الذي اتخذه المؤتمر في الاجتماع السنوي لعام ١٨٩٠ م ، و الذي جاء فيه :

"إن اللغـة الأردية تنقصها البحوث و المقالات المتصلة بالأخلاق و الخالية من الأسلوب الشرقي المعقد و المقفى، و المفيدة للطلاب و المهذبة في اعتدال العواطف البشرية الجياشة ، و نظرا للأهمية و الحاجة ، يجب أن يتم اعداد مثل هذه البحوث ليطبعها المؤتمر و ينشرها فيما بين المسلمين ". (٢٩)

و بما أن الأفكار الخاطئة و العقائد الفاسدة كانت قد رسخت في أذهان عامة المسلمين السذج ، الذين كانوا قد اعتبروها من الدين بسبب جهلهم، فان المؤتمر حاول من خلال النشرات و الاجتماعات أن يخلق لدى الناس وعياً بأن تلك الأفكار و العقائد ليست فاسدة من الناحية الخلقية و الثقافية فحسب، بل هي معارضة للشريعة الاسلامية أيضا (٣٠).

و حينما شكل المؤتمر لجنة مستقلة لإصلاح المجتمع، فانه جعل الأمور التالية هدفا له : (٣١)

١ ـ الامتناع من تناول كافة أنواع المخدرات و المسكرات.
٢ ـ تجنب الإسراف في الإنفاق بمناسبات الفرح و الالم.
٣ ـ الامتناع من تزويج الأبناء و البنات في سن الطفولة و عن غير رضاهم.
٤ ـ منع البنات الصغيرات السن من استخدام الحلي.
٥ ـ عدم اعطاء أيّ شئ للمتسوّلين الاقوياء من ذوي الصحة الموفورة.
٦ ـ الامتناع من التبذير الذي جاءت به الأساليب الحديثة العصرية للحياة.
٧ ـ ابتعاد جميع أعضاء لجنة إصلاح المجتمع عن التعطل.

و لم تقتصر النشاطات الإصلاحية للمؤتمر على القضاء على التقاليد التبذيرية غير الاسلامية الرائجة في مناسبات الفرح و الالم فحسب، بل و تجاوزتها إلى المؤسسات التي كانت تهدف إلى الإصلاح . فقد أولي المؤتمر اهتمامه للسجون أيضا و طالب من الحكومة اتخاذ الإجراءات اللازمة لإصلاح من يعيش فيها من المسجونين المجرمين ، محاولة لإبعادهم عن الجرائم و الاثام و تعويدهم على الحياة الاجتماعية الصالحة . (٣٢)

الخدمات الثقافية :

يراد بالثقافة ذلك الجزء للحضارة الذي يتصل باللغة و الآداب و العلوم و الفنون ، و لاشك في كون اللغة وسيلة لانتشار و ذيوع كل من الاداب و العلوم و الأفكار الاصلاحية و الآراء الدينية. و العهد الذي نتحدث عنه هنا كانت اللغة في الهند قد أحدثت فيه أزمة خطيرة و مشكلة معقّدة . فبينما كانت للحكومة لغة، كانت للرعايا من الهنود لغة أخرى ، الأمر الذي كان يؤدي إلى حدوث نوع من الفوضى و الاضطراب في المجتمع. (٣٣)

أما اللغة الاردية ، فإنها لم تكن لغة للمسلمين فحسب ، بل كانت أيضا

لغة لعدد كبير من الناس المثقفين المتمدنين، على رغم اقتصارها في ذلك الزمان على المجالس و السهرات الأدبية و على بلاط الأمراء و الأغنياء. و لذلك، فقد كانت الحاجة شديدة إلى استخدام اللغة الأردية في مجالات التنمية و الازدهار. و اتخذ المؤتمر في هذا الصدد نفس الموقف الذي اتخذه السير سيد أحمد خان تجاه الأردية، الذي يؤكّد على ضرورة كونها سهلة مستساغة مؤثرة و قد نشأت طبقة من الأدباء و الكتاب حاملة لهذا الاتجاه للسير أحمد خان، كان في طليعتها الأمير محسن الملك، و المولوي نذير أحمد، و المولانا حالي، و المولانا شبلي و المولوي ذكاء الله و المولانا وحيد الدين سليم.
و استمر المؤتمر في نشاط و حماس دائمين يخدم اللغة الأردية و يعمل على تطويرها. و تشهد على ذلك تلك القرارات التي اتخذها المؤتمر في هذا الصدد خلال اجتماعاته السنوية. و أنشأ المؤتمر في ١٩٠٣م جمعية خاصة لتطوير اللغة الأردية و ترويجها، أصبحت ذائعة الصيت فيما بعد و تمتعت بمكانة بارزة متميزة جداً بفضل الجهود الجبّارة لرئيسها العالم و البحاثة عبد الحق الذي كان يعرف حقا بأبي اللغة الأردية (٣٤).

و استمر المؤتمر في سيره الدؤوب في خدمة اللغة الأردية و تطويرها من خلال إعداد الكتب و الرسائل و المجلات فيها و نشرها، و اعتنى باعداد و نشر كتب عن السير و التاريخ أيضا من قبل مكتبته إلى جانب إيلاء اهتمامه لطبع مجموعة من الخطب و المقالات للأعلام و إدخال الإصلاحات على الصحافة و الإعلام، نظراً لما يتمتعان به من تأثير قوي على الناس و توجيههم و صياغة أفكارهم و آرائهم. و أصدر المؤتمر كذلك جريدة أسبوعية باسم "جريدة *المؤتمر*" و أنشأ قسماً مستقلاً له بمناسبة المهرجان الذهبي له باسم مؤتمر للصحافة الأردية، سعياً وراء الإصلاح و التشكيل الجديد لها(٣٥)، و تم كذلك تأسيس اتحاد مستقل خاص للصحفيين للعمل في هذا المجال تحت رئاسة المنشي ديا نراثن سنغم، رئيس تحرير مجلة "*زمانه*" و جريدة "*أخبار اردو*" الصادرتين في كانفور، ربّما كان أول اتحاد للصحفيين و الكُتّاب باللغة الأردية، يعود فضل إنشائه إلى المؤتمر. و لذلك، فاننا نستطيع أن نقول و بإيجاز شديد أن كل ما تولّد من وعي و شعور و اهتمام تجاه اللغة الأردية و آدابها في الهند لم تكن إلاّ ثمرة طيبة لجهود المؤتمر المشكورة الجبّارة المبذولة في هذا المجال.

الأمور الاقتصادية :

كان الهدف الأساسي من وراء إنشاء المؤتمر الاهتمام باصلاح أوضاع المسلمين و تعليمهم و تنميتهم، و لا شك أن لكل من التعليم و الإصلاح الاجتماعي علاقة بالشئون الاقتصادية، و قد ركزّ المؤتمر في مجال الاقتصاد عنايته على أمرين : إجراء المنح التعليمية و قضية الأوقاف.

المنح التعليمية :

بما أن الوضع الاقتصادى للمسلمين كان سيئا جدا و لم يكن بوسع الأغلبية منهم تحمل نفقة تعليم أبنائهم و بناتهم، فإن الحاجة كانت شديدة جدا لأن ينهض الأغنياء منهم و يقوموا بتقديم المنح الدراسية للطلاب المتفوقين الأذكياء. و شعوراً بهذه الحاجة أكد المؤتمر على ضرورة إجراء المنح التعليمية للطلاب المسلمين الذين يستحقونها فى الاجتماع السنوى له لعام ١٨٨٧م (٣٦) و تقدم فى الاجتماع السنوى القادم لعام ١٨٨٨م بتوصية إلى الحكومة حول إعفاء الطلاب من أبناء المسلمين الفقراء و المتخلفين اقتصادياً من الرسوم التعليمية (٣٧) ، و فى ١٨٩٦م تمت الموافقة على اقتراح للمؤتمر كان مفاده أن تعاول اللجنات التى تم إنشاؤها بهدف إجراء المنح التعليمية ، لجمع التبرّعات و إعطاء نحو عشر روبيات لطالب مسلم يدرس فى الكلية أو يرغب فى الدراسة فيها مساعدة له في دراسته ، (٣٨) و قد تمتع هذا الإقتراح بتأييد و استحسان المشاركين في الإجتماع السنوى لعام ١٨٩٩م ، و الذى تم فيه اتخاذ قرار حول تقديم المنح التعليمية خاصة للطلاب الفقراء الراغبين للذهاب إلى خارج البلاد بهدف الدراسات العليا في المجالات الصناعية و التكنولوجية (٣٩) كما أن المؤتمر طلب من أعضائه و منسوبيه بذل الجهود لجمع التبرعات حيثما يذهبون للإنفاق على شراء الكتب الدراسية للطلاب الفقراء ، و دفع رسومهم التعليمية (٤٠) و من خلال إلقاء نظرة على تقارير الإجتماعات السنوية للمؤتمر المنعقدة فى لاهور و كراتشي و سورت و رنغون و لكناؤ و داكا نستطيع التعرف على تلك القرارات التى أكد المؤتمر بها و شدّد على ضرورة إجراء المنح التعليمية للطلاب المسلمين.

قضية الأوقاف:

من الأعمال المحمودة التى قام بها المسلمون الأغنياء فى الماضى و التى مازال المسلمون يتمتعون بثمارها الطيبة إلى الآن هو القيام بوقف أراضيهم و ممتلكاتهم فى سبيل الله و خير الأمة . و توجد في الهند اليوم من الأراضى و الممتلكات الموقوفة مايتم بفضلها مساعدة الفقراء و المساكين و اليتامى و بناء المساجد و رعايتها و الإهتمام بالعلوم الدينية و تطويرها. إن الذين وقفوا ممتلكاتهم فى سبيل الله و خير الأمة كانوا حسن النيات و نالوا جزاءهم عند الرب العلى القديم الذى لا يضيع أجر المحسنين ، و لكن الذين خلفوهم و تولوا أمور الأوقاف بعدهم أصيبوا و للأسف الشديد بمرض فساد النية و حب الذات و المال ، فأخذوا يستخدمونها على خلاف رغبات الواقفين و نياتهم ، لتحقيق مآربهم الذاتية و مصالحهم الشخصية ، الأمر الذى دفع المؤتمر لاسترعاء لفت المسلمين إلى هذا الوضع السيئ للأوقاف فى إجتماعاته السنوية فى ١٨٩٩م و ١٩٠٣م و ١٩١٣م و ١٩٢٢م و ١٩٢٨م (٤١) من خلال قرارات اتخذتها فى هذا الصدد ، مؤكدة على ضرورة صرف مكاسبها فى سبيل الله و على نشر التعليم أيضاً فيما بين عامة المسلمين.

الملحقات
الملحق الأول

نظرة على الإجتماعات السنوية للمؤتمر التعليمي الإسلامي لعموم الهند

رقم	عام الإجتماع السنوي	المدينة التي انعقد فيها الاجتماع	رئيس الاجتماع
١	١٨٨٦م	عليجره	المولوي محمّد سميع الله
٢	١٨٨٧م	لكناؤ	المحامي محمّد امتياز على العلوي
٣	١٨٨٨م	لاهور	السردار محمّد حيات خان
٤	١٨٨٩م	عليجره	السردار محمّد حيات خان
٥	١٨٩٠م	إله أباد	السردار محمّد حيات خان
٦	١٨٩١م	عليجره	الأمير محمّد اسحاق خان
٧	١٨٩٢م	دلهي	المولوي محمّد حشمت الله خان
٨	١٨٩٣م	عليجره	الأمير محسن الملك مهدي علي خان
٩	١٨٩٤م	عليجره	المحامي محمّد شاه دين
١٠	١٨٩٥م	شاه جهان فور	الأمير محسن الملك مهدي علي خان
١١	١٨٩٦م	ميرت	الأمير عماد الملك سيّدحسين البلغرامي
١٢	١٨٩٨م	لاهور	الأمير فتح علي خان القزلباش
١٣	١٨٩٩م	كلكتا	القاضي سيّد أمير علي
١٤	١٩٠٠م	رام فور	الأمير عماد الملك سيّدحسين البلغرامي
١٥	١٩٠١م	مدراس	القاضي بيدوم
١٦	١٩٠٢م	دلهي	السير آغا خان
١٧	١٩٠٣م	بومباي	القاضي بدر الدين طيّب جي
١٨	١٩٠٤م	لكناؤ	تهيو دور ماريسون
١٩	١٩٠٥م	عليجره	الخليفة سيّد محمّد حسين
٢٠	١٩٠٦م	داكا	القاضي سيّد شرف الدين
٢١	١٩٠٧م	كراتشي	المولانا ألطاف حسين حالي

٢٢	١٩٠٨م	امريتسار	الأمير السير خواجه سليم الله
٢٣	١٩٠٩م	رانغون	المهاراجا على محمّد خان اميرمحمود اباد
٢٤	١٩١٠م	ناغ فور	عبدالله يوسف علي
٢٥	١٩١١م	دلهي	الأمير عمادالملك
٢٦	١٩١٢م	لكناؤ	الجنرال السيد حسن البلفرامى
٢٧	١٩١٣م	اغره	القاضى شاه دين
٢٨	١٩١٤م	راولفندى	السير المولوى رحيم شاه
٢٩	١٩١٥م	بونا	القاضى عبدالرحيم
٣٠	١٩١٦م	عليجره	الميان محمّد شفيع
٣١	١٩١٧م	كلكتا	السيد محمّد اكبر نذرعلي الحيدرى
٣٢	١٩١٨م	سورت	إبراهيم رحمت الله
٣٣	١٩١٩م	خير فور استيت	السير المولوى رحيم بخش
٣٤	١٩٢٠م	امراؤتى	إبراهيم هارون جعفر
٣٥	١٩٢٢م	عليجره	ميان أفضل حسين خان
٣٦	١٩٢٣م	عليجره	السير أفتاب أحمد خان
٣٧	١٩٢٤م	بومبائى	إبراهيم رحمت الله
٣٨	١٩٢٥م	عليجره	الأمير عبدالقيوم
٣٩	١٩٢٦م	دلهي	القاضى عبدالرحيم
٤٠	١٩٢٧م	مدراس	السير شيخ عبدالقادر
٤١	١٩٢٨م	أجمير	القاضى السير شاه محمّد سليمان
٤٢	١٩٣٠م	بنارس	السير راس مسعود
٤٣	١٩٣١م	روهتك	سيد رضا علي
٤٤	١٩٣٣م	لاهور	اللواء مقبول حسين القريش
٤٥	١٩٣٤م	ميرت	القاضى السير عبدالقادر
٤٦	١٩٣٥م	أغره	الدكتور السير ضياءالدين أحمد
٤٧	١٩٣٦م	رام فور	السير اغا خان
٤٨	١٩٣٧م	عليجره	الأمير س عبدالحكيم

٤٩	١٩٣٨م	بتنا	المولوي أبو القاسم فضل حق
٥٠	١٩٣٩م	كلكتا	الأمير كمال يار جنغ
٥١	١٩٤٠م	بونا	المولوى فضل حق
٥٢	١٩٤٢م	عليجره	المولوى ظهير يار جنغ
٥٣	١٩٤٤م	جبل فور	المبير عزيز الحق
٥٤	١٩٤٥م	أغره	الأمير لياقت على خان
٥٥	١٩٥٢م	عليجره	الدكتور ذاكر حسين خان
٥٦	١٩٥٥م	مدراس	الدكتور ذاكر حسين خان

الملحق الثاني

نظرة على الولايات التى انعقدت فيها الاجتماعات السنوية للمؤتمر

رقم	الولاية	عدد الاجتماعات	أسماء المدن التى انعقدت فيها الاجتماعات بالولاية
١	اترابراديش	٢٦	عليجره ، (٣) ، لكناؤ (٣) إله أباد (١) ، شاه جهانفور (١) ، ميرت (٢) ، رامفور (٢) ، أغره (٣) ، بنارس (١)
٢	مهاراشترا	٦	بومباى (٢) ، بونا (٢) ، أمراوتى (١) ، ناغ فور (١)
٣	دلهى	٤	دلهى (٤)
٤	بنجاب (باكستان)	٤	لاهور (٣) ، راولفندى (١)
٥	بنغال الغربية	٢	كلكتا (٢)
٦	تامل نادو	٢	مدراس (٢)
٧	سندهـ (باكستان)	٢	كراتشى (١) ، خيرفور (١)
٨	بنجاب	١	أمريتسار (١)
٩	هريانا	١	روهتاك
١٠	مدهيابراديش	١	جبل فور
١١	غجرات	١	سورت (١)
١٢	راجستهان	١	اجمير (١)

١٣	بيهار	١	بتنا
١٤	بنجلاديش	١	داكا
١٥	بورما	١	رنغون

الملحق الثالث

	الأمناء الفخريون للمؤتمر	
١	السير سيّد أحمد خان	منذ عام ١٨٨٦م إلى ١٨٩٨م
٢	الأمير محسن الملك مهدى على خان	منذ عام ١٨٩٨م إلى ١٩٠٨م
٣	الأمير وقار الملك مشتاق حسين خان	منذ عام ١٩٠٩م إلى ١٩١٢م
٤	الأمير محمّد اسحاق خان	منذ عام ١٩١٢م إلى ١٩١٩م
٥	سيّد محمّد على	منذ عام ١٩١٩م إلى ١٩٢٠م
٦	الأمير حبيب الرحمن خان الشيروانى	منذ عام ١٩٢٠م إلى ١٩٤٩م
٧	الأمير عبيدالرحمن خان الشيروانى	منذ عام ١٩٤٩م إلى ١٩٥٨م
٨	سيّد محمّد تونكى	منذ ديسمبر ١٩٥٨م إلى مارس ١٩٥٩م (نيابة)
٩	السيّد محمّد عمار أحمد خان	منذ عام ١٩٥٩م إلى ١٩٦٤م
١٠	البروفسور أنوار الحق حقّى	منذ عام ١٩٦٤م إلى ١٩٧٠م
١١	الأمير عبيدالرحمن خان الشيروانى	منذ عام ١٩٧٠م إلى الآن

الملحق الرابع

الأقسام المختلفة التابعة للمؤتمر و رؤساؤها لدى المهرجان الذهبي لها

رقم	الأقســـــام	الرؤســـــا
١	قسم الإصلاح الاقتصادى و الاجتماعى	البروفسور محمّد إلياس برنى
٢	قسم شئون المرأة	الشيخ محمّد عبدالله
٣	قسم التعليم الابتدائي و المدارس الأردية	سيّد آل نقوى خان
٤	قسم التعليم الثانوى	الدكتور ذاكر حسين
٥	قسم التعليم العالى	عبدالله يوسف على

٦	قسم التعليم الفنّي	السيّد أ . ج . خان
٧	قسم تعليم الكبار	المولوي سيّد طفيل أحمد المنغلوري
٨	قسم المدارس الإسلامية	الشيخ حسين أحمد المدني
٩	قسم العلوم و الدراسات الإسلامية	العلامة سيّد سليمان الندوي
١٠.	قسم تطوير اللغة الأردية و ترويجها	المولوي عبدالحق
١١	قسم الصحافة الاردية	المولوي بشير الدين رئيس تحرير "البشير" الصادرة في ايتاوه و الكاتب ديا نراش نغم، رئيس تحرير جريدتي "زمانه" و "آزاد" الصادرتين في كانفور.

وللبحث صلة ...

تعريب : خالد القاسمي

الهوامش :

١ ـ محضر أعمال الاجتماع الحادي عشر لعام ١٨٩٦م ، ص . ١٢٨
٢ ـ محضر أعمال الاجتماع الثاني عشر لعام ١٨٩٨ ، ص ٢٧٣ و ٢٧٤
٣ ـ محضر أعمال الاجتماع العشرين للمؤتمر ، لعام ١٩٠٦م ، ص ١٤٦
٤ ـ تاريخ المؤتمر لأنوار أحمد المارهروي ، ص ١٩ ـ ٢٠
٥ ـ نفس المصدر ، ص ٢٠
٦ ـ نفس المصدر
٧ ـ نفس المصدر
٨ ـ نفس المصدر
٩ ـ راجع للتفصيل كتاب شيخ الهند مولانا محمود الحسن ، حياته و أعماله (باللغة الاردية) للأستاذ اقبال حسن خان، طبع عليكراه، عام ١٩٧٣م
١٠ ـ محضر أعمال الاجتماع الثامن عشر للمؤتمر لعام ١٩٠٤م ، ص : ٣١
١١ ـ محضر أعمال الاجتماع الرابع و الأربعين للمؤتمر في عام ١٩٣٣م ، ص ٧٣
١٢ ـ تاريخ المؤتمر لأنوار أحمد المارهروي ، ص ٢٨
١٣ ـ رحلة إلى لندن للسير سيد أحمد خان ، ص ١٨٩
١٤ ـ محضر أعمال الاجتماع السنوي الخمسين للمؤتمر لعام ١٨٨٨م ، ص : ١١٠
١٥ ـ محضر أعمال الاجتماع السادس المؤتمر المنعقد في ١٨٩١م ، ص : ٧٩
١٦ ـ محضر أعمال الاجتماع الثالث عشر لعام ١٨٩٩م ، ص ١٠٥ ، ١٠٦

١٧ ـ تاريخ المؤتمر للمارهروي ، ص : ٧١
١٨ ـ محضر أعمال الاجتماع الخامس لعام ١٨٩٠م ، ص ١٠٢
١٩ ـ محضر أعمال الاجتماع الثامن عشر لعام ١٩٠٤م ، ص ١ ـ ٢
٢٠ ـ محضر أعمال الاجتماع السابع و الثلاثين لعام ١٩٢٤ ، ص ٥٦
٢١ ـ محضر أعمال الاجتماع السابع لعام ١٨٩٢م ، ص ١٤٣
٢٢ ـ محضر أعمال الاجتماع الأربعين لعام ١٩٢٧م ، ص ١٠٩
٢٣ ـ محضر أعمال الاجتماع الواحد و الثلاثين لعام ١٩٦٧م ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠
٢٤ ـ السير سيد أحمد خان لـ خليق أحمد النظامي ، ص ٩٢ ، طبع دلهي ، عام ١٩٦٦م
٢٥ ـ محضر أعمال الاجتماع الثالث لعام ١٨٨٨م ، ص ١٠٢
٢٦ ـ تاريخ المؤتمر لأنوار أحمد المارهروي ، ص ٢٥
٢٧ ـ نفس المصدر
٢٨ ـ نفس المصدر السابق
٢٩ ـ محضر أعمال الاجتماع الثالث لعام ١٨٨٨م ، ص ٧٠
٣٠ ـ محضر أعمال الاجتماع الخامس لعام ١٨٩٠م ، ص ٨٩
٣١ ـ محضر أعمال الاجتماع الخامس عشر لعام ١٩٠١م ، ص ١٦٦
٣٢ ـ محضر أعمال الاجتماع السابع عشر لعام ١٩٠٣م، ص : ١٩٥ و ٢٠٥
٣٣ ـ محضر أعمال الاجتماع الرابع و العشرين لعام ١٩١٠م ، ص ٣٠٠
٣٤ ـ حيات جاويد للخواجه ألطاف حسين حالي ، ص ١٢٢ ـ ١٢٤ ، طبع دلهي في عام ١٩٣٩م
٣٥ ـ للتفصيل راجع الملحق
٣٦ ـ محضر أعمال الاجتماع الذي عقد بمناسبة مرور خمسين عاما على إنشاء المؤتمر ص ٤٥
٣٧ ـ محضر أعمال الاجتماع الثاني لعام ١٨٨٧م ، ص ٥٤
٣٨ ـ محضر أعمال الاجتماع الثالث ، ص ٧٧
٣٩ ـ محضر أعمال الاجتماع الحادي عشر لعام ١٨٩٦م ، ص ١١٢
٤٠ ـ تاريخ المؤتمر لأنوار أحمد المارهروي ، ص : ٢٩
٤١ ـ محضر أعمال الاجتماع الثالث ، ص ٦٠

قصة قصيرة:

قيـنـــة الشـــاه

بقلم : أمريتا بريتم

لم يكن يدعوها أحد الآن "نيلم" (لازوردى) بل كلهم كانوا يقولونها "قينة الشاه". كانت نيلم قد بلغت إلى عنفوان شبابها في سوق الجوهرات الرئيسى في لاهور. و قد تمت إزالة حجابها علي يد ثرى كبير في الإقليم مقابل خمسة آلاف روبية. و هنا كان جمالها قد أشعل النار في المنطقة حتى أحرقت المدينة كلها. و لكنها انتقلت يوما تاركة سوق الجوهرات الرئيسى لتقيم في أفخم فندق هناك.

كانت المدينة هي هي. و لكن يظهر أنها قد نسيت إسمها فجاة فكان كل واحد يدعوها "قينة الشاه".

كان غناءها مدهشا. فلم يكن أحد يستطيع أن يضارعها في ذلك. لذلك نسي الناس إسمها و لم ينسوا صوتها. فمن كان في المدينة يملك جراموفون ، كانت لديه اسطوانات مسجلة بصوتها ليستمع إلى أغانيها.

لم يعد ذلك خافيا على أحد. حتى أهل بيت الشاه أيضا كانوا على معرفة تامة بذلك ، أن ابن الشاه الكبير الذى بلغ الآن سن الزواج ، لما كان طفلا رضيعا كانت زوجته قد هددت بالانتحار بتناول السم. و لكن الشاه قال لها و هو يقلدها قلادة الدرر :

" إنها ستكون نعمة لبيتك يوما. إن عيوني ليست إلا مثل عيون الجوهرى. أ لم تسمعى أن نيلم شيء يجعل مئات الألوف من الناس معوزين ، و المعوزين مليونير حسب حظهم السعيد و السيء. إنها ياقوت قد وجدناها بمحض حظنا. فمنذ اليوم الذى وجدناها نكسب ثروات طائلة. فكل شيء نتناولها بأيدينا ، يتحول فجاة إلى الذهب."

" لكنها سوف تخرّب بيتنا كما خرّبت بيوت الالاف " أجابت زوجته بلهجة جافة و ممتعضة.

" صحيح ، فانني أيضا خائف جدا. لذلك لا أعتمد على هذه المغنيات. فقد تخدعنا هي يوما. إلا أنها لو ضاعت من أيدينا ، سوف يتحول كل شيء إلى التراب ". قال الشاه مرة أخرى.

لم يكن لدى زوجته دليل آخر. فكل شيء كان متوقفا على الوقت. و كان الوقت ساكتا منذ سنوات. حقيقة كلما كان الشاه يصرف من ماله عليها ، كانت تتدفق إلى بيته أضعاف مضاعفة منها. فكان يملك دكانا صغيرا في سوق صغير قبل ذلك. و الآن هو صاحب محل كبير للسلع الثمينة في أكبر سوق في المدينة. و إضافة إلى ذلك كان الحي كله ملكا له. فكان يسكن فيه الناس المستأجرون من ذوي الجاه و المال. و لم تكن تترك زوجته الغرفة الكائنة تحت مستوى الأرض في منزلها.

مرت سنوات عديدة. لما قالت له زوجته يوما و هي تقفل الصندوق الحديدي : " عليك أن تتركها في الفندق أو تبني لها التاج محل. على أي حال ضع آفة الخارج في الخارج. و لا تحضرها إلى بيتي. فانني لن أنحني أمامها."

حقيقة لم تنظر زوجته وجه القينة حتى الآن. و لما قالت هذا الكلام كان ابنها يتعلم في المدرسة و الآن هو صالح للزواج ، و لكن لم تسمح زوجته لأحد لا بإحضار أسطواناتها إلى بيتها و لا بذكر إسمها ، إلا أن أبناءها كانوا قد سمعوا أغانيها في دكاكين عديدة و سمعوا إسمها من أفواه متعددة.

كانت هناك استعدادات لزواج الإبن الكبير. فكان الخياطون مشغولين منذ أربعة شهور في بيت الشاه. فواحد يوشي الحلية. و الثاني يطرّز الخمار و الثالث الملابس الأخرى. و كانت يد زوجة الشاه مملوءة بالمال. فتخرج كيس الروبيات و تفتحه ثم تذهب به إلى خزينتها لتملأه مرة أخرى.

أصّر أصدقاء الشاه و أترابه على أن تغني القينة في هذه المناسبة. إلاّ أنهم اختاروا أسلوبا لا يزعج الشاه ، فقالوا إن لديك مغنيات و راقصات عديدة ، أدع أية واحدة منهن. و لكن لابد أن تأتي ملكة الغناء في هذه المناسبة و تغني في الحفل و لو أغنية واحدة.

لم يكن الفندق الذي فيه القينة مثل الفنادق العامة الأخرى. فكان معظم النزلاء هناك من الإنجليز. و كانت فيه شقق ذات حجرة و حجرتين و ثلاث حجرات. و كانت القينة تسكن في شقة من حجرات. كان في نية الشاه أن يأخذ أترابه و أخدانه يوما ليقيم عندها حفلة الغناء.

لكن قال له أترابه : " أما الذهاب إلى ذلك المكان في الفندق، فانه من حقك فقط. هل قلنا لك هذا قبل ذلك طوال هذه المـدة الطويلـة ...؟ فنحـن لا نريد أن نعرف إسم ذلك المكان لانه يختص بك. إنما نريد أن تزداد بهجة الاحتفال بعقد زواج ابن عمّنا. فادعها إلى بيتك و بيت زوجة أخينا مثل عادة رجال العائلات."

استحسن الشاه هذا الكلام. لانه لم يكن يريد أن يرى أترابه الطريق إلى نيلم. مع أنه قد بلغه أن بعض أبناء الأثرياء بدأوا يتوجهون إلى سكنها. و أيضا إنه كان يريد أن تشاهد نيلم فخامة بيته و روعته. إلا أنه كان يخشى من زوجته فلم يقل "حسنا" أمام أترابه.

تجرأ إثنان من أقرابه على الذهاب إلى زوجته و قالوا لها : " ! لا تقيمين يا سيدتي حفلة غنائيـــة بمناسبـــة زواج ابنك ...؟ نحن قد عزمنا على أن نكمل كل أفراحنا. و قد قرر الشاه أيضا على إقامة حفلة غنائية ليلة تحييها نيلم.

الكلام معقول. قالت زوجة الشاه لكن إنها قد خرّبت بيوت الآلاف ... !

لكن البيت بيتك. ! لم تأخذ نيلم منكم أموالا طائلة. كوني عاقلة. استدعيها ليوم واحد فقط لنطرب و سوف تتم الأفراح بمناسبة زواج الإبن ، و لا يضيع المال أيضا.

رفضت زوجة الشاه فـي أول الأمـــر و قالت و هي تمتعـض و تغضـب : " لا أريد أن أنحنى أمام تلك الدنيئة. فهدّأها الآخرون بقولهم. أنت هنا صاحبة الأمر و النهي. و إنها سوف تأتي مثل الجارية و تكون تحت أمرك و تزيد الأفراح بمناسبة زواج إبنك. و تأتي هنا كما يأتي الخدام الآخرون."

أعجبت السيدة بهذا الكلام المعسول. و فضلا عن هذا كانت هي أيضا تشتاق إلى رؤيتها مرة لتعرف كيف هي. فإنها لم ترها ابدا فلو رأت قينة جالسة في عربة تمر بالمدينة تحسب أنها هي.

فينبغي أن أراها أيضا مرة. قررت في نفسها. إنها قد أضرّت بي فعلا ما كانت تستطيع الإضرار. فماذا تفعل أكثر من ذلك. فلأرى مرة تلك الملعونة.

وافقت زوجة الشاه على شرط ! لا يكون هناك شراب و لا كباب. بل يكون الغناء فقط و تغنى كما تغنى في بيوت الناس الطيبين. و نسمح لكم الرجال أيضا بالجلوس. فلتأت هي و تغنى أغـاني نظيفـة و تذهب من هنـا ، و أنا سوف أعطيها نفس البقشيش كما أعطيها لغيرها من الفتيات المغنيات لأغاني فرحة الزواج.

هذا ما نريده نحن أيضا يا سيدتي. تملق الأصدقاء و قالوا : " ليس البيت إلاّ رهنا لحسن نظامك. و إلا ماذا سيحدث ، لا يعلمه أحد."

حضرت القينة و كانت زوجة الشاه قد بعثت لها مركبا يجره حصان. كان البيت مكتظا بالضيوف. و كانت الغرفات مفروشـــة بالأرديـــة البيضـاء و في وسطها "طبل". بدأت النساء يغنين أنشودة تهنئة العريس. وقفت العربة أمام باب البيت فنحت بعض النساء إلى نواح مختلفة.

" لماذا تتوقفين عن الغناء. صاحت السيدة ... ! لكن كان صوتها خفيفا. كان بمجيئتها وقع على قلبها.

صعدت القينة على السلالم حتى وصلت إلى الباب. و عندما أرادت زوجة الشاه أن تنظر إليها أمسكت بطرف ساريها الوردية اللون. كأنها تستعين بساريها في هذه اللمحة. كانت القينـــة في حلة حريرية مزركشـــة خضـــراء. و كان اللون الأخضر يعكس عكسا خفيفا على كل شيء حتى بدا لزوجة الشاه

أن اللون الأخضر قد انتشر في كل مكان.

رنّت الأسورة الزجاجية خضراء اللون. رأت زوجة الشاه أن يدا شقراء جميلة تمس جبينها منحنية لتسلم عليها ثم صاحبته صوت رقيق : " مبروك يا سيدتي ... مبروك جدا ".

كانت جميلة فاتنة ، ناعمة الملمس ، لطيفة الجسم. فلما أشارت إليها بأن تجلس متكئة على وسادة الجلوس. بدت لها أن عضلة يدها غير وسيمة.

كان الشاه أيضا جالسا في ناحية من الحجرة مع أترابه و بعض أقاربه. فرأت تلك الحسناء إلى تلك الناحية أيضا و سلمت مرة أخرى. ثم جلست متدللة و هي تستند إلى الوسادة. رنت الأسورة الزجاجية مرة أخرى عند جلوسها. فرأت زوجة الشاه مرة أخرى إلى ذراعيها و أسورتها الزجاجية الخضراء. ثم أخذت تنظر إلى أسورة يدها الذهبية.

بهرت العيون كل الناظرين. بدأ كل واحد ينظر إلى ناحية واحدة حتى عيون زوجة الشاه أيضا. و لكنها امتعضت و غضبت على كل العيون ماعدا عينيها.

ثم أرادت أن تقول مرة أخرى للفتيـات للاستمـرار في أغنيـة الزواج و لكن صوتها احتبس في حلقومها و لعل أصوات الآخرين أيضا قد احتبست في الحلقوم. فساد الصمت في الحجرة بدأت القينة تنظر إلى الطبل الموضوع في وسط الغرفة. و أرادت أن تضربه بشدة. فقطعت الصمت من ساد الصمت بسببها. فقالت أنا أغني قبل كل واحد أغنية الزواج. و أهنيء الولد. ما رأيك يا سيدتي ...؟ ثم رأت إلى زوجة الشاه و بدأت تغني أغنية الزواج باسمة :

" مبروك للأم السعيدة. في هذا الموسم الجميل البهيج الذي تتساقط فيه قطرات المطر لتهنيء الأم ، الزوجة السعيدة و زوجها."

إطمأنت زوجة الشاه فجاة. لأنها كانت هي الأم الوحيدة بين المستمعين و زوجها أيضا كان لها فقط. جلست الأم أمام من كانت تغني أغنية التهنئة للولد.

فلما انتهت الأغنية ، عاد التكلم مرة أخرى إلى الغرفة. و طلبت النساء أغنية ...... و الرجال طلبوا أغنية أخرى ..

لم تنتبه القينة إلى طلب الرجال كأنها لم تسمعه. و جذبت الطبل إليها و ألصقته بركبتها. تشجعت زوجة الشاه على ذلك. لأن المغنية استجابت لطلب النساء أولا بدلا من أن تستجيب لطلب الرجال. ما كانت هناك تعرف بعض النساء بين الضيوف من هي. فهمست واحدة. إنها هي قينة الشاه. كان جواب الإمرأة بصوت خفيف جدا. مثل الهمس. و لكن مع ذلك اصطدم صوتها بأذن زوجة الشاه . " قينة الشاه " ، " قينة الشاه ". فتغير لون وجهها.

أثناء ذلك ارتفع صوت الطبل و الغناء. " ليركب الإبن السعيد " على حصانة الموكب.

لم تنتبه الطلبات للأغاني. فما كادت تنتهي أغنية ، حتى تبدأ أغنية أخرى. كانت المغنية تستجيب لطلبات النساء أحيانا و أحيانا لطلبات الرجال مع قولها أثناء ذلك. ليغنى أحد آخر أيضا حتى أستريح قليلا. و لكن من كانت فيه الجرأة. و من كان يستطيع أن ينافسها في ذلك ؛ مع أنها كانت تقول ذلك إلا أنها كانت تواصل أغانيها بدون توقف.

و خلال الأغاني لما قالت المغنية: " إنهض يا سيدي ليتشرف الحاضرون برؤية وجهك " أخفق قلب الجو و ساد الصمت و السكوت في كل الجهات. أصبح الناس الجالسون في الغرفة هامدين بلا حراك. ثم اضطرت زوجته مرة أخرى و أمعنت النظر في وجه الشاه. و كان الشاه أيضا قد صار هامدا مثل الآخرين.

تهيج قلب الزوجة و رأت أنه لو ضاع هذا الوقت فسوف تصبح هي حجراً للأبد. فلتعمل شيئا ، و لابد من العمل شيئا ، حتى لا تصبح تمثالا.

تأخر الليل كثيرا. و كاد الحفل أن يختتم. و أراد الزوجة أن توزع اليوم الحلاوة بنفس الطريقة كما يوزعها الناس الآخرون في هذه المناسبة. و لكن لما انتهى الغناء أحضر الشاي و الحلوى من أصناف عديدة في الغرفة.

أدارت زوجة الشاه يدها فوق رأس ابنها و فيها ورقة نقدية من فئة مائة روبية ثم قدمتها إلى التي كانت تدعى "قينة الشاه".

احتفظي بها معك يا سيدتي. فانني سوف آخذ منك الكثير في المستقبل ، أجابت القينة. ثم ضحكت. و كانت ضحكتها تتلألأ مثل جمالها.

تغير لون وجه الزوجة. و بدا لها أن مغنية الشاه قد نجحت اليوم في ربط قرابتهـا أمام الجميـع في حضـور الشـاه و أهلكتهـا. لكنها تمـالكت و استردت قواهـا و عزمت علـى ألاّ تنهـزم اليوم. فاطلقت ضحكـة عاليـة. و قالت و هي تمسك الورقة النقدية :

" إنه سوف تأخذين من الشاه الكثير "

" و لكن متى تأخذين من يدي بعد الآن ...؟ فخذي اليوم "

أخذت قينة الشاه ورقة مائة روبية و غابت فجأة و انتشر لون ساري زوجة الشاه الوردي في الغرفة.

تعريب : سراج الحسن

استعراض الكتب

اسم الكتاب : ملحمة الهند الكبرى المهابهاراتا

الناشر : عبـــد الالـــه المـــلاح

عرض : (الدكتور / شميم الحسن أمانة الله)

الاستاذ المشارك بقسم اللغة العربية
جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي،
الهنـــــــــد.

بين أيدينا ترجمة رائعة لكتاب من كتب التراث الهندي القديم و هو المهابهاراتا ، ملحمة الهند الكبرى ، ذلك لأنّها تضم خزانة كاملة من أنباء أساطير الهند و دياناتها. و قد قال عن هذا الكتاب الفيلسوف الهندي العظيم الدكتور راداكريشنان أنه "أعظم عمل أنتجته آسيا" و يقول جواهر لال نهرو إنه عمل شامخ ... موسوعة للأعراف و التقاليد و الأساطير ... مخزن غني فيه أنواع الكنوز الثمينة ، المليئة بالحياة المتنوعة الخصبة المتدفقة بغزارة".

هذا الكتاب في نحو ٢١٨ صفحة من القطع الكبير و قامت بنشره "مكتبة الأسد" في دمشق.

المهابهاراتا هي إحدى الملحمتين في الهند القديمة. أما الأخرى فهي "الرامايانا" و هي تستمد قصتها من حكاية استطرادية وردت في ثنايا المهابهاراتا .

المهابهاراتا في الواقع مجموعة من القصائد تنتظمها قصيــدة واحــدة. و هي الملحمة التي تتصور الحروب التي نشبت بين فرعي أسرة بهاراتا (الباندو و كورو) و هي ملحمة ما انقطع الناس عن ترددها عبر القرون و ما

زال هذه العهد بهم منذ ثلاثين قرناً أو تزيد حتى غدت تصور روحهم و فكرهم و ترسم لهم عالم القيم و المثل.

تقع المهابهاراتا في مئة ألف بيت من الشعر المزدوج. فهي تبلغ إذن ثمانية أضعاف الإلياذة و الأوديسة مجتمعتين و تكاد تبلغ ضعف حجم الشاهنامة. و يقول المترجم من هذا الكتاب في مقدمة ترجمته:

"إننا لا نعلم على وجه اليقين التاريخ الذي وضعت فيه المهابهاراتا. و لكن المرجح من إشارات في النص أنها تعود إلى ألف سنة قبل الميلاد. و قد ترجع إلى خمسمائة سنة أخرى قبل هذا التاريخ و ممّا لا ريب فيه أن الملحمة كانت في بدايتها أكثر بساطة و اقتصرت على رواية قصة آل بهاراتا و الحرب التي قامت بين عشيرتين من هذه القبيلة. موشاة بعرض للعقائد الفيدية القديمة. ثم لحقت بها إضافات كثيرة في العصور اللاحقة. و من ذلك سفر *"البهغفات غيتا"* الذي يعود إلى عصر متأخر.

و لقد تضخمت تلك القصة البسيطة في حبكتها. و أضيفت إليها حكايات رمزية و أساطير، و ما عرض للهند من عقائد و فلسفات و ديانات. و باتت بعدئذ أشبه بالمخبر. فدخلتها عقائد الاريين بعد الفيدية. و زادت فيها البوذية و الجينية إلى الهندوسية. و كان أن أتى هذا المزيج مع دخول عقيدة البهكتي الصوفية بعقلية توفيقية فريدة وتجربة فكرية ذات خصوصية شديدة من سعيها إلى بلوغ الإنسجام بين عناصر متباينة. و مهما يكن الأمر، فقد كان أثر المهابهاراتا على الفكر الهندي، و المجتمع الهندي قوياً بل تجاوز حدود الهند إلى سواها من الأمصار" إن هذا الوصف صحيح و دقيق.

يقال إن المهابهاراتا قد جمعه و رتبه " فياسا" في ١٨ مجلـــداً كبيـــراً. و هي الشخصية الأسطورية التي تنسب إليه جميع أسفار الفيدا أو الحكمة.

إن الاريين في الهند قبل أن ينقسموا إلى طوائف بسبب شريعة مانو، ينتمون إمّا إلى نسل الشمس Surya-Vansa أو إلى نسل القمر Chu dra- Vansa و النسل الشمسي الذي حكم أوده، كان أكثر شهرة، و راما الوارد ذكره في الرامايانا هو بطله الأكبر. و المهابهاراتا هو قصة لحرب مخرّبة حاسمة طويلة بين أنسباء كورو و باندو المنحدرين من بهاراتا من بورو، سلف فرع النسل الشمسي.

و عن سبب تسميته بالبهاراتا يقال إن الالهة و ضعت مرة المهابهاراتا في كفة و الفيدا في كفة أخرى، فاصبحت كفتها راجحة. فمنذ ذلك الوقت سميت بهذا الإسم و هو يعني الوزن الأكبر.

و يقول الهنود إن قراءة *المهابهاراتا* يقضي على كل الذنوب حتى أن بيتا

واحدا منه يكفي لإزالة كل الآثام.

و خلاصة القول إن المهابهاراتا تشبه في روعتها جبال همالايا التي تبعث الرعب في قلوب مشاهديها بجلالها و ضخامتها.

أما بشأن الكتاب المترجم فنستطيع أن نوجز المعالم الكبرى فيه على النحو التالي:

أولاً : الكتاب مزيّن باللوحات التوضيحية الفنّية الملوّنة الجميلة المرسومة في عصور مختلفة و كلها تتعلق بالأساطير الواردة في الكتاب . و إن لوحة الغلاف خاصة مزينة بصورة تمثل عربة البطل أرجونا يقودها الإله كريشنا.

ثانياً : الترجمة و الإخراج فيقول المترجم "لقد حرصت على أن تصدر هذه الطبعة أمينة للنص و الروح التي أملته . و أن ياتي العمل في بيان عربي قويم قدر مايسرلي الله . ثم اضفت ملحقا للتعريف بابطال الملحمة و المصطلحات الفلسفية الهندية .

هكذا نرى أن الكتاب قد خرج بشكل رائع جذاب و بهذا ملأ فراغا في المكتبة العربية.

بريد القُـــرّاء

السيد عبد القادر اوقاسي
شارع عيسى محمودي ،
العامرة (ولاية عين الدفلة ـ ...٤٤)
الجمهورية الجزائرية

يسعدني أن أكتب لكم هذه الرسالة بعدما أتيحت لي الفرصة للإطلاع على أحد أعداد المجلة التي ينشرها مجلسكم و التي عنوانها " ثقافة الهند" باللغة العربية، فاعجبت بمواضيعها التى يميزها طابع البحث العلمـــي للموضـــوع مما يزيدها أهمية لمعرفة ثقافة بلدكم المتنوعة ، و بحكم اهتمامي بمثل هذا المجالات، و قد رأيت بأن هـــذه المجلـة أي "ثقافة الهنـد" و الأخرى بالفرنسيـة "Rencontre Avec l' Inde " توزع مجانا للراغبين فى ذلك ، فإنني أطلب منكم هاتين المجلتين بانتظام حتى أتمكن من إثراء معرفتي و ثقافتي. و أخبركم بأنني طالب بقسم الماجستير بمعهد علم المكتبات و التدقيق بجامعة الجزائر (الجمهورية الجزائرية) و أحضر موضوعا حول مخطوطات المؤلفين الجزائريين بالمكتبة الوطنية الجزائرية "*فهرس فاينان : دراسة تحليلية*" و كذلك أعمل بالمكتبة الوطنية الجزائرية بقسم المخطوطات، و لهذا فإنني بحاجة إلى عدد من فهارس المخطوطات العربية التى أطلب منها نسخا للإفادة بها فى بحثي إلى جانب قوائم المخطوطات المطبوعة و المحققة و هذا لاستكمال عناصر البحث.

و فى الأخير تقبلوا مني سيادتكم فائق التقدير و الاحترام و أتمنى لكم النجاح فى مهمتكم الثقافية و لقاؤنا فى مراسلة أخرى .

محمد شقال
ص . ب : ٨٤٠١
حلب / سورية

. من دواعي سروري و امتناني ، أن أبعث إلى سيادتكم برسالتي الأولى لأنقل إليكم عبر كلماتها القليلة ، مشاعري الصادقـة و احترامي العميـق لما تقومون به من جهود مشكورة في سبيل تعريف قارئ العربية بتاريخ بلادكم و تراثها العظيم و سبل تطورها التاريخي و الثقافي و الاجتماعي ...

لقد اطلعت مؤخـراً و عبر أحـد الأصدقاء علـى أحدث أعداد مجلتكـم و قد هالني فعلاً، ما قرأت فيها من أبحاث رصينة و دراسات معمقة حول الهند عامة و صلتها بالعالم العربي خاصة، مما يتيح للقراء و المثقفين العرب الاطلالة على منهل فكري هام يفيدهم في دراساتهم و أبحاثهم. علماً بأني شخصيا عاكف على اعداد دراسة حول تطور العلاقات الهنديـة ـ العربية في العصور المملوكية ـ العثمانية سيما و أني أحمل درجة الدبلوم في الدراسات العربيـة و الاسلامية ـ تخصص تاريخ.

لذا و رغبة مني في معرفة المزيد عن مواضيعكم و أبحاثكم الشيقة، يرجى اعتباري مشتركاً نظاميا لديكم بعد موافقتكم طبعا . و ان ترسلوا لي المجلة بانتظام على عنواني المدون أعلاه.

و أخيراً لا يسعني إلاّ أن أشد على أيادكم . و أشكر سلفاً جهودكم الجبارة في سبيل ترقية العلاقات الهندية ـ العربية نحو الافضل. متمنيا لكم و لأفراد تحرير مجلتكم و للشعب الهندي الصديق دوام التقدم و الازدهار .

و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته.